الدكتور حسن حنفى

مذهبه و منهجه:

الدكتور حسن حنفى أستاذ الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، بجامعة القاهرة، ألّف عدداً من الكتب، فعرفه المثقفون ككاتب علمانى ماركسى، ولكن تحت عنوانات إسلامية!

وبهذه العنوانات استطاع أن يخدع بعض الناس، إذ وجدناه يتحدث عبر إذاعة القرآن الكريم عن القرآن الكريم، على الرغم من أنه يُنكر أن القرآن وحْي منزل من عند الله! ووجدناه يحاضر فى كلية أصول الدين فى جامعة الأزهر، عن الشيخ شلتوت، ويعلن أن الشيخ شلتوت أنكر حد الردة. والمؤسف أن أحداً من المشايخ الحاضرين لم يرد عليه! (ليس بسبب الجهل طبعاً).

والشيخ شلتوت ليس حجة على الإسلام؛ وإنكاره لحد الردة لا قيمة له، إن كان قد أنكره حقًّا، والأصول العلمية تقتضى من المحاضر أن يزن كلام الشيخ شلتوت بموازين الكتاب والسُّنة، لتُعْلم قيمته الحقيقية. لكن الأستاذ المذكور يهمه أشياء أخرى غير الأصول العلمية؛ وقد حقق ما أراد وأعلن أمام الشيوخ، وفى عقر دارهم، أنه لا وجود لحد الردة، تأييداً لرفاقه الحمر فى حزب التجمع الذين أعلنوا أن حد الردة لن يحكم مصر!

وإزاء هذا "التسلل الثقافى" - إن جاز التعبير - شعرت أن من واجبى، بحكم التخصص، أن أُعرّف الناس بحقيقة مذهب ذلك الأستاذ. فهو يفتقر إلى الصراحة، ويجيد المراوغة، ويكتب ضد الإسلام باسم الإسلام وتحت شعارات الإسلام!! ولو كان على قدر من الصراحة والاستقامة، لما كانت هناك حاجة لدراسة أفكاره، إذ هى فى ذاتها مجرد نُقُول وترجمات واقتباسات مضطربة، غير موثقة، وخليط متنافر من تراث الباطنية والشيعة الغُلاة، مع إضافات من النظريات الفلسفية الأوربية، والماركسية خاصة، وجرعات من البراجماتية الأمريكية. **ومثل هذا الفكر لا يستحق القراءة، فضلاً عن الدراسة!**

حقيقة انتمائه:

وأحسب أن معرفة حقيقة انتمائه تُيَسر لنا عملنا هنا. فنبدأ بها.

ولقد عرّف هو نفسه بنفسه فقال: "أنا فقيه من فقهاء المسلمين، أُجدد لهم دينهم وأرْعَى مصالح الناس، ليس لنا ألقاب، بل من علماء الأمة، ورثة الأنبياء، والمحافظون على الشرع كما كان فقهاء الأمة من قبل." ثم يضيف إلى ذلك قوله: "إنما نحن أحد علماء الأمة، وواحد من المجتهدين."(١)

والطريف هنا قوله إنه ليس له ألقاب!

وقد ذكر عن نفسه أنه وُلد سنة ١٩٣٥م. وحين تخرج فى الجامعة سنة ١٩٥٦م سافر إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه، فمكث فيها عشر سنوات كاملات، واتصل بالتشكيل الناصرى للطلاب المبتعثين.

وقد اعتبر عهد السادات "ردة" - يعنى ردة عن الناصرية والاشتراكية العربية - لذلك ترك مصر إلى أمريكا غاضبًا، ومكث هناك خمس سنوات؛ وقد رتبوا له ليعمل أستاذًا زائرًا فى أمريكا (أية جهة يا ترى رتبت له ذلك؟).

وكانت رسالته لنيل الدكتوراه فى "مناهج التفسير". وقد أراد تطبيقها على علم أصول الفقه الإسلامى، بأن يعيد تفسيره ليساير الاشتراكية الناصرية، بخلفيتها الماركسية!

والماركسية تزعم أن الإنسان هو الذى خلق فكرة "الله"؛ فلا إله ولا سماء، ولا تنزيل ولا جبريل، بل كل شىء نبت من طين الأرض، ومن المجتمع البشرى! وسنجد أن هذه الفكرة الماركسية ثاوية وراء أفكاره، فضلاً عن فروض (نظرية سوسيولوجية المعرفة عند "ماركوز") تلك التى تُنَظِّرُ لتلك الأفكار الإلحادية.

وقد قاده انتماؤه إلى الماركسية إلى مزاعم فَجّة. من ذلك مثلاً قوله: "إن الثورة الاشتراكية الكبرى - أى الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ - ثورة إسلامية فى أهدافها، تخرج من الإسلام، ولا تكون ضده، أو بديلاً عنه".(٢) ومن ذلك أيضًا

---

(١) انظر كتابه: المقدمات النظرية؛ ص ٤٢.

(٢) انظر كتابه: الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ٦١.

استشهاده بآيات قرآنية على صواب المبادئ الشيوعية؛ فهو يقول: "ولا يمكن تركيز المال فى أيدى قلة، والأغلبية مُعْدمة: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾. (الحشر:٧) لا يمكن أن يظهر فى المجتمع الواحد أغنياء وفقراء، فما فاض عن الحاجة أصبح لصالح الأمة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:٢٤، ٢٥) [١]

وهكذا صارت المبادئ الشيوعية مبادئ إسلامية، أو المبادئ الإسلامية مبادئ شيوعية، واتضح أن النبى ﷺ قد طبق الشيوعية فى الدولة الإسلامية الأولى قبل "لينين" بألف وثلاثمائة وخمسين عامًا تقريبًا!!

كان انتماؤه إلى الماركسية و الشيوعية - إذن - من القوة بحيث قاده إلى مثل هذه المزاعم الضحلة. والحق أن الإسلام هدفه الأول إقامة التوحيد فى الأرض، وتعبيد الخلائق لخالقهم - جل جلاله -. وشريعة الإسلام تسبغ الحماية على الملكية الفردية التى حازها المسلم بالطرق المشروعة. وقد وُجد الفقراء والأغنياء فى العهد النبوى وعهد الراشدين، إلى جانب الأغنياء، كما وُجد هؤلاء وأولئك فى كل مجتمع بشرى، بسبب التفاوت الطبيعى بين الأفراد. ولذلك أوجَبَ الإسلام نفقات الأقارب، والزكاة، وندب إلى الصدقات، وفَرَضَ سد الخلات. وآية سورة الحشر التى استشهد بها تتحدث عن توزيع الغنائم بين المهاجرين والأنصار، ولا صلة لها بالتأميم أو المصادرة الشيوعية. وآية سورة المعارج تمتدح المؤمنين الأغنياء الذين يؤدون الزكاة التى هى حق للسائل والمحروم؛ أى أنها تنطق بضد مزاعمه !![٢]

فهذه بعض العينات "لمناهج التفسير" التى تعلمها في فرنسا، وأراد أن يطبقها على الإسلام ليثبت أن مذهبه الشيوعى الذى ينتمى إليه صواب بأدلة قرآنية !! وكما ترى، ليس فى ذلك تفسير من أى نوع، بل تعسف وعبث واستهانة شنيعة بآيات القرآن الكريم. (ويلاحظ أنه حين يورد نص آية لا يُسبقها بعبارة "قال الله تعالى"؛ وسنرى أن لهذا تفسيرًا) وهو بكل جسارة يُغفل كل الحقائق المعروفة عن عهد النبوة،

---

(١) انظر كتابه: الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ١٥٦ .

(٢) راجع تفاصيل القضية فى كتابى: موقف الإسلام من الدنيا .

فيزعم، كما تزعم الشيوعية، أنه: "لا توجد فى المجتمع الإسلامى ملكية خاصة لأدوات الإنتاج، بل هى ملك الأمة."(١) والحق أنه لم يكن هناك قطاع عام بالمرة، بل امتلك الأفراد كل شىء، من الأرض، والعقارات، والآبار، والبساتين، والتجارات؛ وحتى الكلأ والماء والنار التى اعتبرت ملكًا للجماعة كلها، كانت تنقلب إلى ملكية فردية بمجرد حيازتها لدى فَرْد ما، بجهد يبذله فى ذلك. وحتى أسلحة القتال من الخيل والنبل والحراب كانت ملكية فردية!

وكان انتماؤه للماركسية سببًا فى إنكاره لوحي السماء، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وكما سنفصِّل القول فيه فيما يلى من هذه الدراسة.

فعند ماركس: أن المادة هى التى تطورت وأفرزت العقل أو الروح؛ وأن الإنسان هو الذى اخترع فكرة الألوهية. وتبعًا لهذا يزعم صاحبنا أن الفكر ينشأ من الواقع.(٢) والعقائد من ضمن الفكر الذى ينشأ من الواقع، من طين الأرض ومن المجتمع الإنسانى.

وهو يهاجم اليمين - الذى يضم الإسلاميين والرأسماليين فى المصطلح الشيوعى العربى- فيقول: "اليمين بطبعه تابع للسلطة ومُبرِّر لقراراتها، لأنه السلطة تتحدث عن نفسها. أما اليسار- فهو الرقيب على السلطة، والناقد للأوضاع والموجّه للواقع. وإذا برر، فإنه يتخلى عن وضعه كيسار، ويلحق باليمين."(٣)

وهذا الكلام باطل بُطْلانًا شنيعًا. وهو قلب للحقائق. فاليسار هو الذى عانى - ويعانى اليوم فى الصين وكوريا الشمالية - من هذه الآفات التى ينسبها صاحبنا إلى اليمين الرأسمالى. وقد كانت تبعية الأحزاب اليسارية للسلطة فى بلادها، وعجزها عن النقد والرقابة والتوجيه، سببًا فى انهيار الدول الشيوعية الواحدة تلو الأخرى. وكانت الأحزاب اليمينية فى الغرب تملك الحرية والنقد والتوجيه، وتُسقط الحكومات، وتتداول السلطة، مما أدّى إلى ازدهار المجتمعات الليبرالية وتقدمها. وكان الإسلاميون على امتداد التاريخ نُقّاداً للسلطة حين تنحرف؛ وهم الذين قاوموا الطغاة ولا يزالون؛

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ١٥٧.

(٢) نفسه، ص ٦٣.

(٣) نفسه، ص ٦٩-٧٠.

وهم الذين قاتلوا المستعمر الأجنبى. والآن، لننظر إلى العالم الإسلامى، ولَسوف نجد الإسلاميين هم الذين يواجهون السلطات حين تنحرف أو تتغوّل أو تظلم أو تتهاون فى الاستقلال؛ وسنجد اليسار هو الذى عاش ويعيش تابعًا للسلطات الحاكمة، وفى حجْرها، طالما أظهرت العداء للإسلام كنظام شامل للحياة. ونحن لم ننسَ بعدُ المنظر الفكاهى المضحك لمجلس السوفيت الأعلى حين كان يُعلن موافقته على قرارت السلطة بالإجماع، ودائماً!

هذه إذن هى حقيقة انتماء الدكتور حسن حنفى: إنه ماركسى شيوعى، وإن أنكر ذلك! وإن أصر على أنه يسارى إشتراكى إسلامى! ومن موقفه الماركسى الشيوعى كتب ما كتب عن الإسلام. وفَهْمُنا لمواقفه، ومراوغاته لا يتم إلا إذا نحن وضعنا حقيقة انتمائه، كما تشهد بها كتبه، فى أذهاننا. فإذا زعم أنه فقيه، فَاعْلم أنه فقيه فى الشيوعية؛ وإذا زعم أنه مُجدد، فَاعْلم أن تجديده يتمثل فى العبث بنصوص الإسلام لتشهد بصواب الشيوعية. وإذا زعم أنه مجتهد، فَاعْلم أن اجتهاده لا غاية له إلا الانتصار لشيوعيته. وأما وراثته للنبوة فهى أشنع أباطيله!

منهجه: الانتقاء والنبذ، وإعادة التفسير:

ولقد اتبع الأستاذ المذكور فى كتاباته منهجًا معروفًا، يفتقر إلى الموضوعية، لكى يخدم انتماءه الاشتراكى الماركسى. **والخطوة الأولى** فى ذلك المنهج هى: انتقاء بعض النصوص القرآنية والحديثية، ونبذ ما سواها! ومعيار الانتقاء والنبذ هو المبادئ الشيوعية. **والخطوة الثانية** هى: إعادة تفسير النصوص المنتقاة لتشهد بصحة المبادئ الشيوعية. وسنرى، فضلاً عما سبق، أن إعادة التفسير هى عبث مفضوح بالنصوص!

ويرفض المذكور الموقف الإسلامى السديد الذى يصر على الأخذ الكامل الشامل بالكتاب والسنّة، ويدافع عن "الانتقاء والنبذ" ! وهو يزعم أن الأخذ الكامل الشامل بالإسلام "أسطورة"، لأنه – فى وهمه – يُغفل الواقع من أجل المبدأ. وهو يزج بالتحرر من الاستعمار فى سياق تسويقه للانتقاء والنبذ، فيقول: "فإذا كان الهدف القومى الأول هو التحرر من الاستعمار، فله، (أى للمثقف) أن يختار من العقائد ما يساعده على ذلك، مثل تلك التى تؤكد علاقة الله بالأرض، وليس تلك التى تفصل

بينهما."[1] فالعقائد عنده وسيلة لا غاية.[2] (وسنرى أنه يرفض كل العقائد الدينية!) وهذه "الانتقائية" عنده ترجع إلى نظرته البراجماتية النفعية للعقائد الدينية؛ فعنده أن هذه العقائد لا يُقال إنها صواب أو خطأ، حق أو باطل، لأن الصدق عنده: "هو مقدار الإنجاز الذى يتم."[3] وطبقاً لهذه البراجماتية المستعارة من الأمريكيين، يمكن أن يكون الشرك عقيدة مقبولة إذا كانت مفيدة فى الحياة العملية، ويمكن أن يكون التوحيد عقيدة غير مقبولة إذا كانت غير نافعة، والمنفعة والفائدة والإنجاز بمعايير الشيوعية المادية الملحدة. ومن المؤكد أن التوحيد ليس مفيداً بتلك المعايير.

والحق أن "الانتقاء والنبذ" يُخرج المسلم من الملة، لأنهما يحتمان إنكار الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة؛ وهذا ما فعله المذكور؛ وسوف نعرض عينات من الآيات والأحاديث التى أنكرها أو ردها. ولذلك أقول: إن "الانتقاء والنبذ" هما الأسطورة، لأنهما يتناقضان مع الشهادتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. فكيف أشهد بالتوحيد والرسالة، ثم أُكذب الله ورسوله، وأزعم أن أقوال ماركس أو غيره خير من كلام الله وأحاديث رسوله؟! ولا مخْرج من هذه الأسطورة إلا بالأخذ الشامل الكامل للإسلام عقيدة وشريعة. عندئذ يتسق الفكر، وينصلح الواقع، ويبرأ من الثنائية المهلكة التى كانت سببًا رئيسًا فى تخلفنا وضعفنا. وعندئذ نتحرر من الاستعمار الفكرى ومن كل مظاهر التبعية السياسية والاقتصادية. وبعد تحرير الأرض والعقل، وكل شىء فى حياة المسلمين، يظل الأخذ الكامل بالإسلام هو الضمانة الكبرى لوحدة الأمة، وقوتها وكرامتها، ورُقيها، وهو المذهب الوحيد المؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وليس فى الإسلام عقائد تفصل بين الله تعالى وبين الأرض أو تربط بينهما ! فتلك هرطقة لا تصدر إلا عن كاتب مستهتر لا يحترم الدين ولا العلم ولا الأدب. فإن علاقة الله تعالى بمخلوقاته جميعًا هى علاقة الإله الخالق المعبود بعبيده. فإذا عرفوا ذلك، وأخلصوا العبادة لربهم، ضمنوا السعادة فى الدنيا والآخرة، وتحرروا كلية من الخوف والعبودية لغير الله جل جلاله.

(١، ٢، ٣) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ٣٢ - ٣٣ .

ويلوم صاحبنا أساتذته الناصريين، ويتجنى عليهم لجهلهم بهذا "المنهج" المزدوج أى: "الانتقاء والنبذ"، ثم العبث بالمنتقى من النصوص القرآنية!": "فظلت الجماهير مسلمة من جانب، وتسمع خطبًا فى الاشتراكية من جانب، دون أن يحدث تأويل لعقيدتها الدينية، بحيث تكون الاشتراكية مضمونًا لها، ودون أن تتحول الاشتراكية إلى مضمون لعقيدتها."(١)

هنا يتناسى المذكور أن أساتذته الناصريين كانوا انتقائيين مثله، يأخذون ببعض الإسلام وينبذون بعضه. ولقد حاولوا تسخير بعض الشيوخ "لإعادة تفسير" الإسلام لكى يثبتوا أن الاشتراكية نظام إسلامى أو شبيه بالإسلامى. ولكنهم فشلوا لأن الاشتراكية تتناقض مع الإسلام من حيث أصولها المادية الإلحادية، ومن حيث مبادئها الاقتصادية التى تقوم على التأميم والمصادرة للملكية الخاصة، مما يُعتبر فى الشريعة اغتصاباً للأموال وأكلا لأموال الناس بالباطل. وظلت الجماهير المسلمة رافضة للاشتراكية، قابضة على دينها. وها نحن اليوم لا نزال نعانى أشد العناء من آثار قوانين الإيجار التى خالفت الشريعة، وانتهكت مبدأ الرضا الشرعى الذى تقوم عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها.

هذا الفشل الاشتراكي الناصرى يُغضب المذكور؛ وهو يتوهم أن بوسعه، بالكتب التى ألفها، أن ينجح فيما فشل فيه أساتذته وهم فى الحكم، فيحوّل المسلمين عن دينهم، بإعادة تفسيره، لتحل الفكرة الاشتراكية محل الإسلام، تحت غطاء لفظى إسلامى. فثورة ناصر الاشتراكية أخطأت لأنها: "لم تستثمر كل طاقات العقيدة كحامل، أو مَدّ، لمشروع الثورة القومى". ولذلك ظلت العقيدة على ما كانت عليه، "تقليدية سُنّية، أشعرية، صوفية، تقوم على سلطوية التصور، وحرفية التفسير، وإطلاق الإرادة الإلهية، وفناء العالم، وتبعية الجسد".(٢)

إذن، مشروعه يبتغى تلاشى تلك الأخطاء (بحيث يتحول المسلمون عن دينهم) واستعمال العقائد الإسلامية كحامل لمشروع الثورة القومى؛ والاشتراكية هى أهم عنصر فى ذلك المشروع. ومنهجه: العبث بالنصوص، وتقييد سلطان الله تعالى (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، وإلغاء عقيدة القيامة أو فكرة فناء العالم؛ وتبعية

(١، ٢) الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ١١٠، ١١١.

الجسد للروح. وهذا هو التجديد المطلوب عنده ! ولا يكف الأستاذ المذكور عن ترديد قوله إن ذلك العبث بالإسلام، وهو ما يسميه "إعادة التفسير" إنما هدفه إشباع متطلبات العصر، أو إنجاز أهداف الثورة، وهى: تحرير الأرض من الاحتلال الأجنبى، وتحرير الإنسان من الطغيان السياسى، وإقامة الوحدة القومية وتحقيق العدالة الاجتماعية.(١) لكنه يعجز عجزاً تامًّا عن بيان الصلات السببية بين: "الانتقاء والنبذ، وإعادة التفسير" وبين هذه الأهداف. وبدلاً من ذلك البيان يقفز على حين بغتة إلى ذكر الشيوعية، والمطالبة: "بحق الدولة فى التأميم والمصادرة، وملكية وسائل الإنتاج."(٢) وبذلك يُشعرك بأنه لا يذكر هذه الأهداف إلا كمدخل لإقناعك بالشيوعية، ولا يحمل على الصهيونية إلا للترويج للاشتراكية!

وإذا نحن عدنا إلى الواقع المعاصر وجدنا أن الثورة الناصرية الاشتراكية هى التى باعدت بين الأمة وبين تلك الأهداف، فقهرت الشعب وانتهكت الحريات، وأضاعت فلسطين وثلث أرض مصر والجولان السورية، ورقعة هائلة من أراضى الأردن، فضلاً عن الضفة الغربية. ثم إنهم مَزّقُوا العرب شر ممزق؛ بل قسّموا الشعب المصرى نفسه إلى أمتين: أمة علمانية، هى الأقلية الحاكمة، المتغرّبة، وأمة مسلمة. فالواقع يشهد بضد ما يزعمه ذلك الكاتب الماركسي فى هذا الصدد.

ولم يقم بدور مؤثر لتحقيق الأهداف القومية غير الإسلاميين؛ فهم الذين جاهدوا ضد الاحتلال الأجنبى، ولا يزالون، إلى هذه الساعة: قاتل الأزهريون ضد بونابرت فى مصر، وقاتل عبد القادر الجزائرى ضد فرنسا فى الجزائر، وقاتل عبد الكريم الخطابى ضد أسبانيا فى المغرب، وقاتل المهدى ضد بريطانيا فى السودان. ولا يزال الإسلاميون هم القوة الفعالة ضد الطغيان السياسى الذى رسّخته النظم الاشتراكية، وضد العدوان الخارجى؛ وهم الذين أنجدوا إخوانهم المسلمين فى أفغانستان والبوسنة والشيشان.

إذن، هذا هو انتماء حسن حنفى الحقيقى، وهذا هو منهجه. وبهذا المنهج غير العلمى، وغير الموضوعى، ومن موقف الفلسفة المادية والماركسية الملحدة، نظر فى

---

(١) راجع كتابه: المقدمات ؛ ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) راجع كتابه : الحركات الدينية المعاصرة ؛ ص ١١٢ .

الإسلام ودَرَسَه، عقيدةً ونظامًا للحياة. ولسوف تظهر شناعاته حين يتحدث عن القرآن الكريم من ذلك الموقع وبذلك المنهج. ولسوف يُعرف أى فقيه هو، وأى مجتهد، وأى مُجدّد، بأوضح من كل ما سبق أن قلناه فى هذا الجزء الأول من الدراسة.

ماذا يقول عن القرآن الكريم؟

لا ريب أن بيان موقف أى كاتب من القرآن الكريم كفيل بالكشف عن موقفه من الإسلام جملة وتفصيلاً. وهاهنا نحاول بعون الله تعالى بيان موقف حسن حنفى من القرآن الكريم، لنعرف رأيه فى الإسلام معرفة واضحة.

وأول ما نلاحظه أنه يُكَذّب النبى ﷺ تكذيبًا غير مباشر بقوله عن العقائد الإسلامية (التى جاءت فى آيات كثيرة جداً فى القرآن الكريم) إنها من تأليف الطبقات المحرومة! فهو يقول عن الجنة والنار إنهما: "إفرازات للطبقات المحرومة، حيث تجد فيه تعويضًا عن حرمانها وإشباعاً لحاجاتها. ويتضح ذلك فى العقائد عندما تم خلْق عوالم الجنة والنار، وأهوال القبر، وأهوال القيامة، ومشاهد الإسراء والمعراج، عن طريق الخيال الشعبى، وبأدق التفصيلات."(١) وواضح أن صاحبنا هنا يُكذّب كل الآيات التى تتحدث عن الجنة والنار، ويرى أنها من إنتاج الخيال الشعبى للطبقات المحرومة، وليست تنزيلاً من السماء! أى أن محمداً بن عبد الله لم يَتَلقّ وحيًا، ولم ير ملكًا، بل ألف تلك الآيات تعبيراً عن الخيال الشعبى للطبقات المحرومة فى العصر الجاهلى!

وللمذكور عبارات أخرى تؤكد تكذيبه للقرآن الكريم. من ذلك قوله إن القرآن تعبير عن الشخصية العربية: "وما القرآن إلاّ أحد مراحل صياغتها الثقافية، وما الإسلام إلاّ أحد أشكال تعبيرها".(٢)

فالقرآن الكريم عنده ليس تنزيلاً من السماء بل كتاب صاغ فيه مؤلفه العربى ثقافة أمته فى عصره، وكان أحد التعبيرات عن الشخصية العربية فى ذلك العصر.

ومن أقواله (فى القرآن الكريم) إن "مناهج التفسير" عنده تكشف عن البيئة

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٣٧.

(٢) نفسه؛ ص ١٤٣.

الثقافية: "التي خرج منها النص (القرآني) نشأة وتكويناً، وصياغة وتقنيناً، والتي يعود إليها قراءة وتأويلاً، فهماً وتفسيراً. فلا يُفهم الإنجيل إلا بالرجوع إلى البيئات الثقافية اليهودية واليونانية في فلسطين. ولا يُفهم نص القرآن الكريم إلا بالرجوع إلى الثقافات العربية في شبه الجزيرة."[1] فالقرآن الكريم في رأيه ليس تنزيلاً من عند الله، بل تعبير بشري عن البيئة الثقافية لمؤلفه. وهذا الهراء هو ما زعمه المستشرقون الصليبيون، وردده من بعدهم العلمانيون!

وبناء على هذا يجب ألا نسمح له بأن يخدعنا، وهو يجيد الخداع، ويتقن المراوغة، بعبارات وأساليب ملتوية، فنصدق أنه يصدق حرفاً واحداً من كتاب الله تعالى. (ويلاحظ انه يصف القرآن بـ "الكريم" ضمن السياق الذى ينكر فيه أنه مُنَزَّل!)

والرد على تكذيبه للقرآن الكريم هو نفسه الرد الذى واجه به القرآن الكريم تكذيب العرب الجاهليين واليهود والنصارى. ولقد زعم المشركون العرب أن القرآن الكريم من تأليف البشر، وقالوا: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ (المدثر: ٢٥)؛ ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا** ... ﴾ (الفرقان: ٥) وقد تحداهم القرآن الكريم بإعجازه البلاغى والعقدى والتشريعى والأخلاقى؛ وأُضيف الإعجاز العلمى فى هذا العصر الحديث. وقد كُتبت عشرات الكتب في إعجاز القرآن الكريم؛ **وثبت ثبوتاً لا يرتاب فيه منصف أن القرآن الكريم يستحيل أن يؤلفه إنسان فى ذلك العصر، ولا فى أى عصر آخر. فكل البشر، أمماً وأفراداً، يعجزون عن الإتيان بمثله**. وكل ادعاءات الجاهليين التى رددها حسن حنفي وراء زمرة المستشرقين والملحدين هى ادعاءات ودعاوى زائفة. فبعد أربعة عشر قرناً لم يستطع أحد تأليف آية واحدة!

ولقد نسف القرآن الكريم أسس الثقافة العربية الجاهلية، ومحا الشخصية العربية الجاهلية، وأعاد بناء الفرد والأمة بناءً جديداً، فى الفكر، وفى العمل، وفى النظم الاجتماعية: هدم الوثنية والشرك وأقام التوحيد، وأزال الظلم ووَطّدَ العدل، وخَضّدَ الأنانية وغرس الإيثار، وقاتل العصبية وشيّد الأخوة الإسلامية، وأدان القبلية وأسس

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ٢٦.

الأمة، وقضى على التشرذم وأقام الوحدة؛ ولهذا قاومته الشخصية العربية الجاهلية أعنف مقاومة، وقالوا: ﴿إن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . .﴾ (الفرقان: ٤٢) ولذلك ظل عدد المهتدين فى مكة قليلاً، بعد جهاد النبى ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى الدعوة إلى الله، وعلى الرغم من تهافت الوثنية إزاء التوحيد!

هل النبوة متطورة ؟

– ولأنه يعتقد أن الأرض أو البيئة هى مَنْبت كل العقائد، وأن البيئة تتطور، فقد زعم أن النبوة تتطور وتتطابق مراحلها مع ظروف كل عصر. ولفظ "النبوة" هنا معناه الوحي المادى أى الكتب التى يُقال إنها سماوية والتى هى عنده من تأليف البشر، وليست النبوة بالمعنى الإسلامى السديد؛[1] فهو يجعل النبوة، أو الوحي، أو رسالات السماء، تابعة ومسايرة لظروف العصر، لأنها من تأليف بشر يعيشون فى بيئة معينة فى عصر معين، ويعبّرون عنه. فإذا حدث تطور فى البيئة، تطورت النبوة!

وهذه مغالطة مفضوحة. فالنبوة من آدم – عليه السلام – إلى محمد ﷺ عند المؤمنين بأنها وحي من السماء، وفى واقعها الحقيقى، كانت هى التى تهدم الواقع، وتزيله، لتبنى مكانه واقعًا جديداً، فى الفكر والاعتقاد، وفى العمل والتطبيق. وظلت هذه هى وظيفة النبوة والرسالات السماوية، وستظل، إلى يوم القيامة. فكلما انحرف المجتمع، وابتعدت ظروف العصر عن توحيد الله، وعن الاستسلام لأمره، كانت الرسالة، كما هى فى الكتاب والسنة، هى البوصلة الهادية إلى النجاة. وما المعارك المتواصلة بين الإسلاميين والعلمانيين فى العصر الحديث، إلا تعبيرات عن تلك الحقيقة الإسلامية. ولو كان الواقع فى حقيقته كما وصفه صاحبنا، لما بقى من الإسلام شيء بعد عصر الراشدين، وكثرة الأسباب الداعية إلى تغيير ظروف العصر. ولو كان الواقع كما توهمه لزال الإسلام من الوجود بسبب التغيرات العصرية الراهنة العميقة الواسعة الشاملة لكثير من جوانب الحياة.

ويظن المذكور أن ظاهرة "النَسْخ" تشهد له بأن الرسالات السماوية، أو النبوة حسب تعبيره، تتطور تبعًا لتطور ظروف العصر. والحقيقة التى يعرفها دارسو الإسلام

---

(١) راجع هامش كتابه: المقدمات ص ٦٠ .

تقول إن: "النَسْخ" -أولاً- لا يمتد إلى الثوابت المطلقة الخالدة في دين الله- الإسلام- من آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ. و"النَسْخ" - ثانياً - هو توجيه الواقع وتطويره بالتدريج. فالأمر المهيمن دائمًا هو الرسالة؛ والخاضع التابع هو الواقع. وتلك رحمة من الله تعالى بخلقه، أن يتدرج بهم نحو الكمال المنشود، ولا يكلفهم فوق طاقتهم بالقفز بهم من حضيض الشهوات إلى سماء الالتزام والطاعة.

وأسباب النزول أيضًا لا تشهد له بما زعم. فقد نزل القرآن الكريم مُنَجّما، سورة فسورة، وأحيانًا آية فآية، أو بضع آيات؛ وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، وذلك ردًّا على الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢) فكلما استشكل أمر، نزل القرآن، فصحح عقيدة، أو قوم وضعًا خاطئًا، أو أيد عرفًا سديداً، أو أدان عادة سيئة كانت مألوفة. وفي هذا كله، كان التنزيل هو الآمر، والموجه، والواقع هو الخاضع. لكن المجتهد الماركسي يريد أن يقلب الحقائق، ويشوش عليها، ليصل إلى غايته الخاطئة.

رفض القرآن الكريم كمرجعية للفكر:

ونتيجة لاعتبار القرآن الكريم عملاً بشريًّا، معبراً عن ثقافة عصره؛ والعصور تتطور؛ فإنه لا يصلح أن يكون مرجعاً للفكر اليوم. ولذلك وجدناه يقرر أن أخطر الأخطار على فكرنا اليوم هو منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، ذلك: "الذي يعتمد على سلطة الكتاب (أي القرآن الكريم)، أو سلطة الموروث، (أي الحديث الشريف). يقوم هذا المنهج (منهج: "قال الله" و"قال الرسول") على افتراض أن جميع الحقائق والمعارف قد وُضعت مسبقًا في مصدرها، أُعْطِي للبشر أو لم يُعْطَ، في صورة علم إلهي، أو لَوْحٍ محفوظ، أو قَدر مكتوب. وعلى الإنسان أن ينتقي منه صورة لواقعه. هو مصدر حَوَى كل شيء: ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث."(١)

وهو يدين الحركة السلفية لاعتمادها على الأدلة من الكتاب والسنة - على منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، واستشهادها بالحجج النقلية - (يعني القرآنية والحديثية) - وحدها دون إعْمال للحس أو العقل.."(٢)

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٨١-٨٢.

(٢) المقدمات؛ ص ٣٩٠-٣٩١.

فهو يرفض اللوح المحفوظ الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢) وهو عقيدة قرآنية إسلامية لا ريب فيها!

والحركة السلفية حين تخاطب المسلمين (المؤمنين بأن القرآن تنزيل من ربِّ العالمين) تخطئ فى رأى الأستاذ المذكور، لأنها لا تعتمد على العقل والحس. وهذا جهل فاضح منه؛ إذ كيف يطلب منا- مثلاً- أن نبرهن على وجوب المسح بالرأس فى الوضوء استناداً إلى العقل؟! ما دخل العقل والحس فى مثل هذه الأمور؟ نعم، إذا جادلنا الكفار بالإسلام لا يجوز الاستناد إلى منهج: "قال الله" و"قال الرسول"؛ ولكن إذا خاطبنا المؤمنين كان ذلك منهجًا مشروعًا، عقلاً وشرعًا. فالذين آمنوا بالقرآن الكريم يتحتم عليهم منطقيًا أن ينصاعوا لأوامره وأن يستسلموا لمقرراته فى الاعتقاد والعمل. وفى مجال الدين الإسلامى وعلومه، المنهج الأساسى، السائد، والحاكم، هو منهج: "قال الله" و"قال الرسول". وليس لأحد أن يفرض على المسلمين واجبًا، أو يعفيهم من واجب إلا بهذا المنهج. وأما فى المجالات العلمية، فلكل علم مرجعيته الخاصة: فالعلوم الطبيعية تجارب؛ والتاريخ وثائق ... إلخ؛ ولكن إذا وَرَدَ فى القرآن شىء يتصل بأى مجال علمى، كالفلك - مثلاً- وجب على المسلم الأَخْذ به واحترامه. وإذا حدث تعارض بين الدليلَيْن واستحال التوفيق بينهما كانت الهيمنة للدليل القرآنى.

وصاحبنا يريد أن يَدْرَأ تلك الأخطار عن فكرنا المعاصر، وذلك بالاعتماد على العقل. **وسنرى أن العقل عنده هو العقل المادى الذى قوامه مجموعة الفروض التى قامت عليها المادية عامة والماركسية خاصة؛ العقل عنده مجموعة أحكام مسبقة، وتحيزات، وأهواء طبقية وشخصية.**

وعنده أيضًا أن ابتلاءنا بالدكتاتورية قد نتج عن منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، وعن عقيدة التوحيد، لأن الطاغية السياسى يشبه الإله الواحد![1] (تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً.)

وهو يزعم هذه المزاعم دون أن يقدم أى دليل علمى أو دينى على صواب

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٨٢.

مزاعمه. فكلامه مجرد مجازفات عديمة القيمة. وتاريخ الإسلام يشهد بأن المسلمين لم يعرفوا الطغيان السياسي إلا حين تخلوا عن منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، ذلك المنهج الذى يقيم الحياة السياسية كلها على أساس من رضا الأمة، والشورى، والبيعة الحرة، ويقيّد الحاكم بعقد وشروط، كأجير، وتكون الشريعة هى المُطاعة، وهى الحكم، "ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، كما قال رسول الله ﷺ، لا فرق فى هذا بين الخليفة وعامة الناس. ولم يظهر الطغيان فى العصر الأموى ثم العباسى إلا بسبب هجر ذلك المنهج الإلهى العظيم.

وحتى فى مجال الفقه الإسلامى يرفض المذكور أن تكون المرجعية للقرآن الكريم، ويريد أن يقلب منظومة أصول الفقه لكيلا تكون الكلمة العليا للقرآن الكريم! يريد أن يكون القياس هو المصدر الأعلى للتشريع، يليه الإجماع، ثم السُّنّة، وأخيراً القرآن الكريم؛ وهو يعلم يقيناً أن القياس، والإجماع، لا مشروعية لهما إلا من القرآن؛ وكذلك السُّنّة؛ فالقرآن الكريم هو مصدر المشروعية لكل المصادر الأخرى، لكن الرجل لا يعير الحقائق الكبرى أدنى احترام!

والحق أن كلامه هنا ضرب من الهلوسة! وهو مستحيل التطبيق. وإنى لأتمنّى أن يقدّم لنا مسألة فقهية واحدة، يشرّع فيها استناداً إلى ذلك الفقه المقلوب! فإذا أخذ مسألة "مما لا نص فيه" – مثلاً – وأراد إعمال القياس، إلى أصل يقيس عليه؛ وهذا الأصل لن يكون سوى آيات القرآن الكريم أو أحاديث النبى ﷺ والإجماع، بصرف النظر عن كل التحفظات عليه، هو إجماع على نص من الكتاب أو السُّنّة، أو على اجتهاد. وفى كل الحالات يكون الكتاب والسُّنّة هما المصدريْن الأساسيين، والقرآن هو المانح للمشروعية لكل المصادر.(١)

وعلى النقيض مما صنعه الفقهاء المجتهدون، والمجددون، والعلماء، ورثة النبوة الحقيقيون، يقترح هذا المجدد المزوّر: "مقاومة النّص بالنّص، حتى لا تكون شرعية النص أحادية الطرف." فهذا فى وهمه يحقق له الهدف، ألا وهو: "أن تكون المنفعة والضرر أساسًا للتحليل والتحريم."(٢) كان العلماء المسلمون المخلصون لدينهم

(١) المستصفى للغزالى؛ ص ١٩٩ وما بعدها. وبخصوص القياس ص ٣٩٤ وما بعدها.

(٢) الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ١٣٥.

يجتهدون للتوفيق بين النصوص التى تبدو متعارضة فى ظاهرها؛ وتراكمت خبراتهم العلمية، واتخذت شكل مناهج وأساليب علمية أصولية فى غاية الدقة والعمق؛ [1] لكن المجدد الشيوعى يبتغى عرقلة الرجوع إلى القرآن الكريم، وذلك بتضخيم ظواهر التعارض، واختراعها، وبذلك يقاوم القرآن بالقرآن، والسُّنّة بالسُّنّة، أو أحدهما بالآخر. وغايته القصوى: أن تكون المصالح هى مصدر التشريع؛ والمصالح عنده هى تطبيق الشيوعية؛ وهذا هو التجديد الفقهى الذى يبتغيه!

وهو يتخذ "العقل" مَطيّة لبلوغ أهدافه الشيوعية. وفى هذا يقول إنه: "بدلاً من الاعتماد على سلطة النص (يعنى نص القرآن الكريم، والسُّنّة المشرفة) يمكن الاعتماد على سلطة العقل، والثقة بمناهجه واستدلالاته ومنطقه. وعلى هذا النحو تتحول السلطة فى المجتمع من سلطة الأشخاص والكتب والنصوص، إلى سلطة العقل." [2] وهذا هو الوصف الدقيق للسلطة فى المجتمع العلمانى. فهو يريد إحلال النظام العلمانى محل النظام الإسلامى؛ ويستبدل العقل بالكتاب والسُّنّة، وبذلك يجدد للأمة دينها!

والعقل الذى يتبرقع به ويتشدق بمصطلحاته هو فى الحقيقة تحيزات ماركسية، وأهواء طبقية وفردية، وشهوات ومصالح مادية، وليس العقل العلمى الموضوعى الرصين، المحايد، الذى نفهمه من كلمة "عقل"؛ هو يريد ذلك "العقل المصلحى"، الذى سَادَ فى المجتمعات العلمانية الشيوعية والرأسمالية، وجَلَبَ عليها الخراب، وقد انهارت المجتمعات الشيوعية واندثرت؛ وما بقى منها يتحول عن الشيوعية، ويُرقّع قمصانه الحمر بكل الألوان، وإن تمسك باسم الشيوعية! ومع ذلك فإن الخراب والسقوط يهددها، فى كوريا الشمالية وكوبا والصين. وأما المجتمعات الغربية فقد نجحت ماديًّا، وفشلت معنويًّا؛ أعنى أنها لم تستطع أن تحقق السعادة لشعوبها، وابتُليت بمصائب وأوبئة فتاكة مثل: الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والأمراض النفسية، والعصبية، والقلق، والاغتراب، وتدهور الأسرة، وانتشار "الإيدز" بسبب انتشار الفحشاء، وميلاد الملايين من أبناء السفاح، والتفرقة العنصرية، والإرهاب، والمخدرات والمسكرات، وما لا يحصى من المنغصات الفردية والجماعية.

---

(١) المستصفى، للغزالى؛ ص ٥٢٢ وما بعدها.

(٢) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٣٩.

فليس صحيحًا أنه يمكن الثقة فى العقل على النحو الذى أطلقه الأستاذ المذكور. فالعلوم الحديثة نفسها لا تدّعى لنفسها اليقين، وتقف عند حدود الاحتمال. وأما الفكر الفلسفى فهو آراء شخصية، ومنازعات مذهبية؛ هكذا كان منذ اليونان القدماء، وإلى اليوم. وقد أدى الاعتماد على العقل دون هداية الوحي إلى ظهور نظريات فى غاية الشذوذ، مثل نظرية المُثُل الأفلاطونية، ونظرية شيوعية النساء فى مدينة أفلاطون الفاضلة الخرافية، ونظرية الرِّق، ونظرية عقول الأفلاك، والعنصرية عند "نيتشه"، والغاية تبرر الوسيلة عند مكيافيللى، واستباحة اللواط والفحشاء وتقنينها فى الفكر المعاصر، واستباحة نَهْب إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، واستباحة إبادة الهنود الحمر؛ وأخيرًا استباحة تعذيب المعتقلين السياسيين العرب فى إسرائيل بحكم قضائى، وهدم منازل الأبرياء منهم فوق رؤوسهم انتقامًا من أبنائهم المجاهدين ضد الصهيونية! و**"العقل المصلحى" الأوروبى والأمريكى يجيز هذا كله، ويراه "معقولاً!" لأن العقلانية هى المصالح، والمصالح المادية، القومية الأنانية! وحتى الحريات والديموقراطية يستعملها "العقل المصلحى" كأدوات ضغط ووسائل ابتزاز، ولا يراها رسالة إنسانية تستحق التضحية بالمصالح!**

وكانت حصيلة تطبيق "العقل المصلحى" فى هذا القرن العشرين (١٧٠ مائة وسبعين مليون قتيل!) بحسب إحصاءات "برجنسكى" الموضوعية، فَسمّاه بحق "قرن المذابح المليونية"!

رفض الثوابت القرآنية:

وعنده أن: "الخطر الأساسى فى فكرنا القومى هو ثباته وعدم ارتباطه بحركة التاريخ."(١) وهذا تعبير عن "النسبية" التى تزعم أن كل الحقائق والعقائد والقيم لابد أن تتغير بتغير الزمان ومرور الأيام. وتلك هى الفلسفة السوفسطائية القديمة، التى تَلَقّفها العلمانيون العرب عن أساتذتهم الغربيين لكى يقاوموا بها ثوابت الإسلام المطلقة الخالدة التى نَصّت عليها آيات القرآن الكريم. وعندما اكتشف الغربيون زيفها، أصر العلمانيون العرب على صوابها!

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٩٠.

فعند العلمانيين، بحسب هذه الفلسفة، والمذكور واحد منهم، أن كل جيل لابد أن يكون أفضل من سابقه، لأنه يكون أكثر تطوراً. وعلى هذا يستنكر المذكور قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ... ﴾ (مريم: ٥٩) ويصف مضمون هذه الآية - بعد أن أساء فهمه له أشنع إساءة! - بأنه: "تصور" يقوم على احتقار الذات، وعلى يأس من الحاضر، وعلى جهل بقدرات الجماعة، وعلى العجز التام، وعلى اليأس المطلق."[1] لقد فهم الآية الكريمة خطأ أنها تحكم بعجز الأمة المسلمة عن تجاوز السلف فى أية ناحية من نواحى الحياة! ولكن الآية الكريمة تتحدث عن بعض ذرية آدم ونوح وإبراهيم -عليهم السلام- وتخبرنا بأنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. والآية التالية تشهد بأن بعض تلك الذرية كانوا من الصالحين، وتقول: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (مريم: ٦٠)

وغيرةً على النسبية ينكر المذكور الحديث الشريف القائل: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها -كتاب الله وسُنَتى." فمبادئ الإصلاح - إذن - ثابتة! وهذا يغيظ العلمانيين المشغوفين بالنسبية السوفسطائية. ولذلك وجدنا صاحبنا يطلق لنفسه العنان بسيل من الألفاظ البذيئة القاسية التى لا مكان لها فى سياق يُفترض فيه أنه علمى.

والحديث الشريف يتحدث عن المبادئ الثابتة المطلقة الخالدة فى العقيدة والشريعة، التى جاءت بها الرسالة، وأصلحت بها شؤون الأمة المسلمة: مبادئ التوحيد المنزه، البرىء من الشوائب الوثنية والتثليث، والتشبيه، والتجسيد والحلول؛ ومبادئ العدل الذى ينفى كل ظلم، لا فرق فى ذلك بين مسلم وكتابى؛ ومبادئ الإيثار التى محت الأنانية الجاهلية؛ ومبادئ الأخوة الإسلامية التى حلّت محل القَبَليّة؛ ومبادئ الوحدة التى أنشأت أعظم أمة وأقوى أمة وأرقى أمة عرفها التاريخ. ولا يتحدث الحديث الشريف عن الصناعة والتقنية؛ فمما لا ريب فيه أن الصناعة اليوم قد تقدمت تقدماً هائلاً لا يمكن أن يُقارن بالصناعة البدائية فى بلاد الحجاز فى عصر النبوة.

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ٩٠.

ولا أحد فهم أن المجالات المادية، ومجالات الوسائل، ثابتة أو مطلقة؛ فتلك هى مجالات الإبداع والتطور الذى لا يتوقف. والحديث السالف لا ينفى قدرة الأمة على التقدم والتطور، كما فهم المذكور منه خطأً دون أدنى مسوّغ. والفلسفة المعاصرة تُقر بوجود الحقائق والقيم الثابتة المطلقة؛ ولذلك رفض النسبية عدد من كبار الفلاسفة الغربيين، منهم "هسرل" Husserl و"شيللر" Schiller و"هارتمن" Hartmann ولكن عداء العلمانيين العرب للإسلام، ورّطهم فى الإصرار على النسبية ورفض المذاهب المضادة لها عند أساتذتهم أنفسهم!

إنكار آيات الصفات :

ويمعن الفقيه الشيوعى فى رفضه للقرآن الكريم فيستنكر وَصْفه لله تعالى بأنه سميع وبصير. وهو يصرح بأننا نحن الذين ألّفْنا تلك الآيات، فيقول: "تصورنا الله على أنه شخص.. وأعطينا الله صفات الإنسان، وجعلنا له سمعًا وبصرًا، ويدًا وجنبًا وساقًا، ينزل ويصعد، يغضب ويفرح."(١)

"والحق أن تسمية الله تعالى توقيفية-أى يتوقف إطلاقها على الإذن فيه، وذلك للاحتياط، احترازاً عما يُوهم باطلاً، لِعظَم الخطر فى ذلك." (٢)

هنا يوضح اعتقاده أننا نحن المسلمين (والنبى محمد على وجه التحديد) الذين ألّفوا تلك الآيات التى تصف الله تعالى بهذه الصفات، وليس الله تعالى هو الذى وصف نفسه بها؛ فالقرآن - إذن مرة أخرى - تأليف لا تنزيل. وتلك عقيدة مشركى مكة الجاهليين!

والمسلمون جميعًا يؤمنون بهذه الصفات الإلهية التى وردت فى القرآن الكريم؛ وهم يعلمون أنها لا تُشخّص ولا تُشبّه، كما قد توحى ألفاظ اللغة البشرية الناقصة (القاصرة). فالله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ **وكل من ينكرها ليس بمسلم يقينًا، وبلا خلاف بين أهل القبلة؛ وليس بعالم، بل جاهل؛ وليس بمجدد، بل مخرب؛ وليس وريث أنبياء الله تعالى، بل وريث مسيلمة الكذاب والأسود العنسى!**

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص٨٦.

(٢) المواقف؛ للإيجى؛ ص ٣٣٣.

إنكار آيات العقائد :

وبمنتهى النزق قرر المذكور : "أن العقائد أهواء. والنصوص تقنين لهذه الأهواء، وتشريع لها."[1] وهكذا بخبطة واحدة، ودون تمييز أو تصنيف للعقائد والشرائع يقرر أنها أهواء؛ وهى أهواء للقائلين بها. ومعنى هذا أن القرآن الكريم، والآيات الكثيرة التى تتضمن عقائد الدين الإسلامى، هى- عنده - تقنين لأهواء محمد بن عبد الله. ولذلك قُلتُ فيما سبق إنه ينكر كل عقائد الإسلام، ولا يجتزئ منها-أي أنه لا ينتقى أية عقيدة أو يؤمن بأية عقيدة، بل ينبذ كل العقائد....، وإن كان الاجتزاء أسوأ من النبذ الكامل، ومن الكفر الصريح، لأنه أداة خداع وغش للمسلمين. وهنا يتأكد ما سبق أن قلناه من أنه يُكذّب النبى ﷺ.

وهو يفسر الإيمان بالله، وعقائد الدين عامة، فيقول إنها: "تنشأ نشأة تجريبية خالصة، نتيجة لظروف اجتماعية معينة، عندما يبدو الإنسان خائفاً من عدة أشياء، فيتحول الخوف إلى عجز وعدم قدرة على المواجهة، ثم يتحول الخوف والعجز إلى تقديس لدَرْءِ الخطر، أو لجلب النفع، وفى النهاية يتحول المقدَّس إلى مُحرَّم."[2]

وهو لا يبيّن للقارئ مصادر هذا التفسير لنشأة عقائد الدين، فيظن أن المذكور هو مخترعه؛ والحق أنه ناقل غير أمين عن علماء الاجتماع الأوروبيين الملاحدة الذين يكنّون عداءً شديداً للمسيحية والكنيسة، وردّدوا هذا التفسير الإلحادى فى كثير من كتبهم.

والواقع المعاصر يبطل هذا التفسير. فالإنسان الآن يملك قدرات هائلة، ويتحكم فى عالمه إلى حد بعيد، بعد التقدم العلمى والتقنى المذهل؛ ومع تقدمه يزداد الإيمان الدينى انتشاراً. وصَدَقَ العقاد حين قال إن القرن التاسع عشر كان عصر الإلحاد، فى حين أن القرن العشرين هو قرن الإيمان.

النسبية :

ولأنه لا يستطيع إعلان إنكاره للعقائد بصراحة تامة، ومباشرة، لا هو ولا رفاقه الشيوعيون فإنه يعتقد أن من الممكن القضاء عليها عن طريق إعادة تفسيرها على نحو

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ٣٥.

(٢) نفسه؛ ص ٧٩ - ٨٠.

يلبى مطالب العصر، وهى عنده المطالب الشيوعية؛ فهو يزعم أن: "كل التفسيرات ممكنة إذا كان فيها تلبية لمطالب العصر، فلا توجد صحة نظرية بقدر ما هناك من فائدة عملية."(١)

وهذا الكلام يفترض أن آيات القرآن الكريم وأحاديث النبيﷺ تتسم بعدم التحديد، أو أنها "مرنة"، أو حتى "صلصالية"، بحيث يمكن تفسيرها بحسب رغبة المفسر؛ ومن المؤسف أن معظم العلمانيين العرب نقلوا هذا الفرض عن المستشرق "جوستاف جرونباوم"؛ فالإسلام عنده مجموعة من النصوص الغامضة بدرجات متفاوتة، ويمكن أن تُفسر على نحو يجعلها توافق أية ثقافة!(٢) ومن هنا ظن المذكور أن بوسعه إنطاق القرآن الكريم والسُّنّة النبوية بمبادئ ماركس ولينين، وتيتو وعبد الناصر!

وحين حاول "إعادة التفسير" اصطدم بالحقيقة القرآنية، وعَجَزَ عن تفسير أية آية تفسيراً علميًّا موضوعيًّا منضبطًا بما يخدم الشيوعية أو مطالب العصر؛ فراح يُلقى الكلام على عواهنه، ويُنكر آيات العقائد، ويُكَذِّب النبيﷺ ويتورط فى كل خطأ ممكن. ولم تسعفه الماركسية، ولا علوم الاجتماع، ولا نظرية سوسيولوجية المعرفة، ولا النسبية السوفسطائية، ولا المستشرقون، **وظلت آراؤه مجرد مجازفات لا أساس لها ولا سند، تشبه أن تكون صراخًا أو هُتافًا بسقوط الإسلام وانتصار الشيوعية ولا تشبه العلم ولا الفكر ولا الأدب!**

أمثلة:

والأمثلة على مجازفاته عديدة. من ذلك قوله إن: "العقائد لها معنى نمطى فى تاريخ الأديان، وهى أنها ضد العقل، فوق العقل، سر لا يمكن إدراكه بالعقل، بل إنها على نقيض العقل، بل وربما أيضًا على نقيض الأخلاق، وضد الطبيعة، ولهذا يؤمن بها الناس."(٣)

---

(١) المقدمات؛ ص ٤٥.

(٢) راجع مريم جميلة؛ الإسلام والتحديث؛ الإسلام حضارة؛ (بالإنجليزية) P.205

(٣) المقدمات؛ ص ٧١.

وإذا كانت العقائد هكذا،وكان هو مُصراً على الاعتماد على العقل، فالنتيجة هي استحالة بحث أية عقيدة بالعقل. لكنه بَحَثَ وكَتَبَ عن عقائد الإسلام معظم كتبه. وكتابه الكبير عنوانه: "من العقيدة إلى الثورة"؛ فَلَعَلّه كتبها بغير عقل. وهذا هو الأرجح؛ فمضمونها هلوسات!

وقد زعم أن عقائد الدين تناقض الأخلاق؛ لكنه لم يعرفنا بمفهومه للأخلاق، ولم يقل كلمة واحدة لشرح ذلك التناقض المزعوم بين الأخلاق والعقائد الدينية!

ولم يبين كيف تكون العقائد الدينية ضد الطبيعة !وكيف يؤمن الناس بعقائد الدين وهي معيبة بكل هذه المعايب؟! إن الإنسان العاقل لابد أن يرفضها!

ولكن الواقع يشهد بأن أعاظم الفلاسفة والمفكرين كانوا مؤمنين؛ وقد أنفق بعضهم حياته كلها في سبيل عقائد الدين. ومع التقدم العلمي يزداد الإيمان بعقائد الدين انتشاراً.

وعلى الرغم من أخبار العودة العالمية إلى الدين، وبخاصة في العالم الإسلامي، فإنه يزعم أن ثبات العقائد الدينية: "أدّى إلى رفضها-كليةً ! ..."(١)

لذلك أقول إن المذكور يصرخ، ولا يفكر. وآراؤه أقرب إلى الهوس منها إلى الفكر والعلم !ويبدو أنه يعيش في عالم خاص، وهو يُجرى فيه ما يشاء!

إنكار وجود الله:

ومن مجازفاته أنه بدأ من بحث حول لفظ "الوجود"، لكي ينتهي إلى القول إن: "الإنسان وحده هو الموجود حقيقة، وكل ما سواه موجود بالمجاز ... سواء العالَم أم الله."(٢) والفلسفة القديمة والحديثة أثبتت وجود الله تعالى بمناهج عديدة. وكُتُبْ علم التوحيد التي رجع إليها زاخرة بالبراهين على وجوده تعالى. لكن سطوة الفلسفة المادية، والماركسية الملحدة، أعْمتْه عن كل تلك الكنوز، فلم يخرج منها إلا بالتراب والحصى!

وهو يزعم أنه معتزلي. وهو مبطل في زعمه. فالمعتزلة كانوا مؤمنين. لكنه أعرض عن براهينهم كلها، ولم يعجبه إلا لفظ "الوجود" وتحليله لكي يخرج منه

(١) المقدمات؛ ص ٧١-٧٢.

(٢) نفسه؛ ص ٤٥-٥١.

بإنكار وجود الله! بل وإنكار وجود العالم أيضاً! فالإنسان، الموجود الوحيد - عنده - وهو الذى خلق نفسه بنفسه! وهو يعيش فى غير عالَم، وبلا أرض ولا سماء ولا هواء ولا ماء!

ولْنرْجع إلى كتاب "المواقف" لعبد الرحمن الإيجى، ولْنبحث عن براهين وجود الصانع، جل جلاله، وسنجد عدة براهين، فيها بساطة ووضوح وكفاية: "فالعالَم مخلوق؛ ولم يكن موجوداً، ثم وُجد؛ وكل مخلوق له خالق. هذا برهان. وبرهان آخر يقول: العالَم ممكن الوجود، لانه مركب وكثير. وكل ممكن لابد له من علة مؤثرة أخرجته من الإمكان إلى التحقيق. وذلك هو الله الخالق الصانع. وبرهان ثالث. فنحن نشاهد النطفة تنقلب إلى عَلَقَة، ثم مُضْغَة، ثم لحما ودماً، ولابد لحدوث ذلك كله من وجود الصانع الحكيم المدبر".

ولاشك أن هذه البراهين تثير قضايا نظرية عميقة وواسعة. لكن الفطرة البشرية، وطبيعة العقل نفسها تشهد بسلامتها، وتقْبلها، وترفض ما سواها كقول صاحبنا إن الله والعالَم موجودان وجوداً مجازيًّا، غير حقيقى!!

لكن الانحياز المسبق للماركسية الملحدة يدفعه دون وعى إلى العزوف عن الحقائق والجرى وراء الشكوك، والاندفاع إلى تقريرات متهوسة عن العالَم وخالقه جل جلاله. ويزيد مجازفاته فُحشًا إصراره على وصف نفسه بانه فقيه عالم مجتهد مجدد!!!

إنكار الآيات التى تثبت وجود الجن والشياطين:

وهو ينكر الآيات العديدة التى أثبتت وجود الجن والشياطين، ولا يعيد تفسيرها كما فعل بعض العلماء لإسباغ المعقولية عليها. فهو يتساءل: "هل هناك جن وشياطين؟" ثم يُعْرب عن استنكاره لإثبات العلماء المسلمين لوجودهما ويقول: "ولكن العجيب أنه بعد هذا الحديث كله عن العلم والفيْض والمعقولات تنتهى نظرية الوجود (عند علماء التوحيد) بل والمقدمات النظرية كلها بخاتمة عن "الجن والشياطين"، وهو ما ترسّب فى وجداننا القومى عندما غاب العقل وحضر الجن والشياطين!" (١)

---

(١) المقدمات؛ ص ٦٢٢.

فإثبات وجود الجن والشياطين استناداً إلى الآيات القرآنية العديدة التى أثبتت وجودهما، وَوَصَفَتْهما، يتنافى في وَهْمه مع العقل والعقلانية. (ورد لفظ الجن فى القرآن الكريم ٤٠ مرة، وورد لفظ الشيطان ٦٨ مرة) [١]

العلماء المسلمون آمنوا بالقرآن الكريم ككتاب منزل "لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه". وآمنوا بوجود الجن والشياطين كما وصفهما القرآن الكريم. وهذا هو الموقف العلمى الوحيد المتسق. ولا بأس بعد ذلك فى الاختلاف حول الآيات المذكورة تأويلاً وتفسيراً، ضمن قوانين التأويل وأصوله. أما صاحبنا فيعلن أنه وريث النبوة، ثم ينكر كل الآيات القرآنية التى جاءت بها تلك النبوة، لأن عقله المادى لا يستسيغها !وتفسير موقفه فى ضوء الحقائق السابقة هو أنه لا يؤمن بالقرآن الكريم أصلاً ككتاب منزل، ولا يصدّق بنبوة محمد ﷺ. وهو يشير إلى أن تلك الآيات تعبير عن قوى الشر وتشخيص لها فى صورة فنية .[٢] وهو يرد ذلك إلى غيبة التفكير العقلى لدى العرب، الذين اخترعوا القرآن والجن والشياطين! وهكذا تتسق مواقفه كلها مع عقيدته الماركسية المادية المعادية لكل الأديان والنافية لوجود الله تعالى، ولكل العقائد القرآنية، من بعث وحساب وجنة ونار، وجن وشياطين وملائكة ورُسل وأنبياء ورسالات سماوية ونُبُوّات، وكل العقائد الدينية. وهذا الاتساق يؤكد صحة تفسيرنا لكلامه وآرائه.

إنكار آيات الخَلْق من عدم، وإنكار القيامة :

وهو ينكر الآيات القرآنية التى تقرر أن الله تعالى خلق كل شيء من لا شيء؛ وهو يُسمّى "عقيدة الخلق القرآنية" : "نظرية الخلق من العدم"، المشهورة فى الفكر الكونى التى تشير إلى البداية الجديدة المطلقة، وإلى خروج الشيء من اللاشيء.."[٣] ولفْظُ "نظرية" يشير إلى الافتقار إلى اليقين، وهو بعد ذلك يقرر أن عقيدة خلق الله تعالى لكل وجود تمثل تطوراً سلبيًّا لعقيدة التوحيد. فهو يقول إنه عندما انهارت الحضارة الإسلامية: "تحول التوحيد إلى عقيدة خَلْق العالَم على أسس تشبيهية

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٢) المقدمات ؛ ص ٦٢٣ .

(٣) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ١٤٧ .

(يعنى : تشبيه الله بالإنسان)، فأصبح الله صانعًا، يخلق من عدم، ويُخرج الشيء من الشيء كما يفعل السحرة والحواة... ثم تصورنا العالَم على أنه فانٍ، زائل، هُراء، هباء منثور..."(١)

بهذا الأسلوب المُسف الهابط كتب عن عقيدة الخلق، والقيامة. فهذه العقائد اخترعها العرب، أو المصريون والعرب، فى عصور الانحطاط، وليست مُنزّلة فى آيات من السماء. وهذا يعنى ضمنيًّا أن العالَم عنده ليس مخلوقًا، بل ليس موجودًا أصلاً إلاّ مجازيًّا! (كما سبق أن بينا). وبهذا ينكر عشرات الآيات التى أثبتت خَلْق الله تعالى لكل المخلوقات، و: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص: ٨٨) وهو ينكر القرآن كله من أوله إلى آخره؛ وإنكار آية واحدة كفر؛ ولذلك نكتفى بما أوردنا من النصوص القرآنية التى ينكرها.

رفض عبادة الله تعالى :

ومن الطبيعى والمنطقى أن يرفض المذكور عبادة الله تعالى. وكيف لا وهو يرفض الدين كله، بأصوله وفروعه؟!

وهو يدين علماء الإسلام الذين يحمدون الله تعالى ويثنون عليه سبحانه، ويدْعُونه، ويتضرعون إليه، والدعاء مخ العبادة، ويقول: "فالإنسان – من أولئك العلماء – يحمد الله على نعمه، ويشكره على فضله، مما يجعل العلاقة أحادية الطرف: من واهب إلى موهوب، ومن مُعْطِى إلى مُعْطَى إليه، وتجعل الإنسان مجرد وعاء للنّعم، ومُستقبل للعطايا، ومنتظر للجود والإحسان." ثم يقول إن: "حالنا لا يتطلب حَمْداً ولا ثناءً على أحد، بل يقتضى رفضاً واعتراضًا، مطالبة وثورة؛ نحن لا نحمد بل نتضجر، ولا نرضى بل نغضب، ولانثنى بل ننقد، ولا نشكر فلا شكر على واجب، بل نثور ونطالب .."(٢)

ويقول أيضًا: "فإذا طلب الإنسان (المسلم) شيئًا فإنه يدعو كى يُستجاب له، ويسأل كى يُعطى له، فتكوينه النفسى قد تعود على السؤال والاستجداء، واعتاد على

---

(١) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ١٤٨ .

(٢) المقدمات؛ ص ١٠-١١ .

الشحاذة والتسوّل. ولن يتغير الواقع عن طريق الدعاء، ولن يطعم جائع عن طريق الاستجداء، ولن يُنصر مظلوم عن طريق البكاء! الدعاء تعبير عن أمانٍ ورغبات، وليس تحقيقًا لها. هو حيلة العاجز، وفعل القاعد، وأسلوب القعيد." ويقول أيضًا: "إن الحصول على القوة لا يأتي بالدعاء للقوى، وباستجداء واهب القوة، بل يحصل عليها بالاستعداد، والحصول على القوة بالفعل."(١)

هكذا يرفض الدعاء، والثناء على الله، وحمده، وشكره، ويعتبر الدعاء لله تعالى تسوّلاً وشحاذة!

بل يعتبر الدعاء تملقًا لسلطان الله تعالى، ويرفضه! وفى هذا يقول: "وجيلنا جيل تغيير وثورة - الثورة الناصرية - وكُتّابه لا يتملقون السلطان الإلهى أو السلطان السياسى، بل يدافعون عن مصالح الشعوب ضد جميع السلاطين."(٢)

فهو يردّ الآيات العديدات التى تأمر بالدعاء لله، وحمده وشكره؛ وما أكثرها فى القرآن الكريم! وهذا هو تجديده فى الدين: كان العلماء المسلمون يحمدون الله تعالى، ويدعونه ويتضرعون إليه، ويشكرونه؛ وأما هو فيرفض كل ذلك! وهذا هو "الإبداع" الذى يفخر به!!

ولم يقل أحد من المسلمين إن تغيير الواقع يتحقق بالدعاء دون عمل، كما يوحى كلامه. والدعاء تعبير عن رغبات وأمانٍ حقًا، لكنه ليس حيلة العاجز، بل منهج المؤمن الذى يعمل، ويجتهد لبلوغ أمانيه، وفى الوقت نفسه، يدعو الله تعالى أن يوفقه. وكذلك القوة، تكتسب بالجهاد والمثابرة والصبر، ومع ذلك كله، يدعو المسلم ربه، واهب كل قوة، وخالق كل قوة، أن يحقق له القوة التى يرجوها لنفسه ولبلاده وأمته. لكن المذكور يخلط الحقائق بالأباطيل، ويبتر الحقائق ويشوهها، ليشنع على الإسلام وعقائده وتشريعاته.

وهو يحذف بعض الألفاظ من جُمَله ليُدَلِّس على القارئ، ويراوغ الناقد، ويفلت من الحساب. فإذا قال: "نحن لا نحمد.." فإنه يحذف لفظ الجلالة، وفى الوقت نفسه يدرك القارئ حقيقة مراده، لأنه وضع نفسه فى تضادٍ مع علماء الإسلام

---

(١) المقدمات؛ ص ١٢.

(٢) نفسه؛ ص ٣٠.

الذين يحمدون الله تعالى، فيكون معنى الجملة: "نحن لا نحمد الله"! وإذا قال إن الإنسان: "يسأل كي يعطى"، فالجملة في الحقيقة هي: "يسأل الله كي يعطيه الله"؛ وهذا عنده شحاذة وتسول. وهكذا تتسم بقية الجُمل بالحذف لألفاظ مُقَدّرة في السياق.

وهذا هو أحد التطبيقات العلمانية لما يسمونه: "البلاغة المقموعة"، أي القدرة على بيان رفضهم للإسلام دون التورط في الرفض الصريح الذي يحرك الجبهة الإسلامية من العلماء والجماهير ضدهم. ولكن هذا الكاتب يندفع أحيانًا إلى الصراحة ويجازف بالمواجهة؛ من ذلك قوله إنه وزملاءه الناصريين "لا يتملقون السلطان الإلهي." فهذه العبارة واضحة الخطأ ولا يمكن أن يتلفظ بها مسلم، ناهيك عن الفقيه المجتهد المجدد وريث النبوة (الكاذب)! **والحق أنه وزملاءه لا يتملقون سلطان الله تعالى، لأنهم لا يؤمنون به أصلاً لكنهم تملقوا عبد الناصر وزُمرة العسكر الانقلابيين الذين حكموا البلاد بالحديد والنار، وتاجروا بالمواقف، وباعوا الضمائر، وألّهوا الطاغوت، وخذلوا الوطن والأمة، وقادوا البلاد إلى الخراب والإفلاس والهزائم التي لا مثيل لها في تاريخ الحروب.** وكان المذكور عضوًا في التنظيمات الناصرية، وكان يحرّض السلطات ضد الأحرار، لعزلهم، بحيث لا يبقى على الساحة سوى المنافقين المتملّقين للنظام العسكري المستبد." ففي سنة ١٩٦٦، كَتَبَ في أول مقال يخُطه بيمينه عن: "الإصلاح الجامعي"، طالب فيه السلطات بتكوين "طليعة المثقفين الثوريين"، و"عزل" جميع العناصر غير الناصرية، من الإسلاميين والرأسماليين والليبراليين، ليحتكر الماركسيون كل شيء في الجامعات.[1] ولولا هذا التملق لما ابتعثته الثورة إلى فرنسا، ولولاه لما سمح له بالبقاء هناك عشر سنوات، حتى لو كان حاصلاً على ١٠٠٪ في الليسانس!

● وبعد، فهذا هو علم حسن حنفي، وهذا هو فقهه وتجديده، وهذه هي أدلة وراثته للنبوة، وهذا هو إبداعه الذي فاق به الأولين والآخرين: إنه لا شيء سوى إنكار الإسلام عقيدة وشريعة، من منطلق التحيز لفروض الماركسية المادية الملحدة. وهو إنكار المنافقين الذين يُعلنون الإسلام ويُبطنون غيره، ثم يدورون ويراوغون ويحتالون

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٢٢١.

ويخادعون للفرار من المواجهة الشجاعة مع الجبهة الإسلامية، ثم اختراقها وهدمها من داخلها. وقد نجح حسن حنفى فى ذلك، وحاضر فى كلية أصول الدين، وأعلن على لسان الشيخ شلتوت أنه لا وجود لحد الردة، وأمسك بميكرفون إذاعة القرآن الكريم ليتحدث عن كتاب حول القرآن الكريم! وحين أرادت اليابان أن تعّرف دبلوماسييها بالإسلام اختارت لهم "جهة رسمية ما" حسن حنفى ليقوم بهذه المهمة. وهذه واحدة من قرائن عديدة تثبت أن النظام الحاكم يساند هذا الرجل الذى يُخرّب فى الإسلام تحت شعارات الإسلام. وهذه المساندة هى التى مكّنته من ميكروفونات الإذاعة ومن مقعد الأستاذ فى أصول الدين، على الرغم من اعتراض البعض على ذلك.

● وصفوة القول إذن إن هذه الدراسة لا ترجو إعلام تلك الدوائر الرسمية بشىء لا تعرفه، ويُفترض أنها إذا عرفته عَدّلت مسلكها تجاه ذلك المخرب المراوغ، ولكنها تتجه إلى الجماهير المسلمة لتعرفه، ولتعرف أىّ نوع من الإسلام يريد النظام الحاكم أن يسود، وأى نوع من الرجال يتقدمون فى بلاطه، و: "لله الأمر من قبل ومن بعدُ."

* * *

جابـــر عصفـــور
قراءة فى كتاب « الرهان على المستقبل »

النسبية:

هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف على امتداد أكثر من عشر سنوات، ونُشرت فى صحف ومجلات مصرية وعربية. والموضوع المسيطر فيها هو القول بأن الحقيقة نسبية، ومن ثمة يجب أن تتاح الحرية المطلقة للباحثين "دون شروط خارجية ودون سقف تفرضه أية سلطة مغايرة لسلطة العلم المعرفية". (ص ١٣٨)

ومعنى هذا أن تخضع ثوابت الإسلام وأصوله، للنقد والمراجعة والقبول والرفض، وأن يُنظر إلى نصوص الكتاب والسنة على أنها نسبية احتمالية، يمكن رفض بعضها استناداً إلى بحوث نقدية أو نظريات جديدة أو إبداعات علمية وفنية. لكن الدكتور عصفور لا يصارحنا بالمضامين الخطيرة لمقولة إن الحقيقة نسبية، ولا يكشف عن آفاق "الحرية المطلقة" تحاشيًا للصدام مع الإسلام، وذلك هو ما يسميه "البلاغة المقموعة" التى تقوم "على التعريض والتلطف والتلميح والتورية"، وقد أصلوا لها قواعد تمكن بلغاء المقموعين من مواجهة الأراقم-يعنى أخابث الحيات!- دون أن يمكنها من افتراسه "وكيف يقول ما لا يقال دون أن يقطع لسانه أو يستخرج من قفاه". (راجع: مفتتح مجلة فصول - المجلد ١٤ - العدد٣ خريف سنة ١٩٩٥).

ومن أساليب البلاغة المقموعة "الإشادة بأتباع المذهب المفضل للكاتب، وازدراء أتباع المذهب المرفوض لديه. و الدكتور عصفور يثنى على لويس عوض، وأدونيس، ويوسف شاهين، وحسن حنفى، وإدوار الخراط وجبرا إبراهيم جبرا وحيدر حيدر وونوس، وغيرهم. ومعلوم للقارئ أى الاتجاهات الفكرية يمثل هؤلاء. وفى المقابل يصف الشيخ رشيد رضا بأنه "ضيق العقل فى الحوار، وداعية إلى التعصب فى شئون العقيدة"!

ورواد التنوير عنده هم: شبلى شميل وإسماعيل أدهم العالم الرياضى والفيلسوف والناقد الأدبى اللامع. ومعروف أن شميل كان ملحداً مجاهراً بإلحاده، وأن أدهم يفوق شميل فى إلحاده وجهره بالكفر بالإسلام (راجع كتاب: التنوير والإظلام للدكتور عصفور).

والبلاغة المقموعة تيسر للناقد أن يقول ما يشاء باستخدام أوصاف بدلاً من الأسماء. وكتاب "الرهان على المستقبل" ومقالاته الأخرى التى لم ينشرها فيه، تحمل بشدة على "النقل". ومعلوم للقارئ أن "النقل" لفظ يُطلق على الكتاب والسنة كما أن "العقل" لفظ يطلق على الخبرات البشرية؛ فإذا قيل للناقد ماذا تعنى بالنقل، قال إنه يعنى أخذ اللاحق عن السابق، وبذلك ينجو من المواجهة. لكن كتابات الدكتور عصفور تفيد أن المقصود بالنقل هو القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المطهرة. وإن لم تنص على ذلك صراحة.

وهو يدافع عن الإبداع بحرارة، ودون كلل أو ملل، فى كتابه هذا وفى مقالاته وكتبه الأخرى. وهو يحمل بشدة على الذين يحرمون البدعة، ويدعون إلى اتباع السلف. ومعلوم أن المسلمين يحرمون البدع المُضادة لمبادئ الإسلام وشرائعه، لا كل بدعة، استناداً إلى حديث الرسول ﷺ الذى سنفصل القول فيه بعد قليل.

الدكتور عصفور – إذن – يرفض حديثًا صحيحاً للنبى ﷺ وهو فى مأمن من المؤاخذة لأنه لم يذكر نص الحديث، ولم ينقده بالنص، أو هكذا يظن. وهو لا يكلف نفسه عناء البحث عن النص الكامل للحديث، وتفسيره لأنه دخل الموضوع، وقد عقد العزم مسبقًا على التهجم على أهل السنة الذين يكررون هذا الحديث فى خطب الجمعة!

وهو يشرح مذهب أهل السنة فيقول إنهم ينكرون كل بدعة، ويقفون ضد كل تجربة جديدة ويتبعون السلف الصالح، ويطيعون الله تعالى ورسوله. وهنا يقع فى خطأ التعميم، لأن أهل السنة لا ينكرون كل بدعة، بل البدعة التى تضاد العقائد أو الشرائع أو الحقائق الإسلامية. وهناك بدعة حسنة، وبدعة سيئة. والتعميم المتعسف آفة شائعة فى لغة الدكتور عصفور!

وفى القرآن الكريم وردت مادة "بَ دَ عَ" ثلاث مرات ليس فيها نهى عن البدعة ولا أمر بها. وفى السنة المطهرة جاء قوله ﷺ: "من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء." (أخرجه مسلم) والبدعة السيئة هى التى تتعارض مع السنة، "والتحقيق أنها إن كانت مما يندرج تحت مستقبح فى الشرع فهى مستقبحة وإلا فهى من قسم المباح، وقد تنقسم إلى أحكام خمسة".(١)

ومعنى هذا أن فى الإسلام: بدعة محرمة وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، وبدعة مندوبة وبدعة واجبة. وهذا هو ما غاب عن ذهن الدكتور كلية.

وعلى هذا يمكن القول إن الإبداع العلمى والتقنى الحديث يقع ضمن البدع الواجبة أو المندوبة (مع مراعاة فقه الحال الذى يأخذ إمكانات الأفراد فى الاعتبار) والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وهذا الإعداد يتطلب ابتداع الأسلحة وتطويرها. وقد كان رسول الله ﷺ أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق – رمى أهل الطائف – واستخدم (الدبابة التى كانت عبارة عن ساتر خشبى ضد نبل الأعداء) قال ابن إسحاق رحمه الله فى السيرة: "دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه..."(٢)

وحين اقترح عليه سلمان الفارسى رضي الله عنه حفر خندق – وكانت تلك العملية بدعة حربية لم يعرفها العرب قط – أخذ باقتراحه ولم يقل إنها ضلالة!

وسار الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على هذا الهدى القرآنى والنبوى الكريم. من ذلك مثلاً: أن الوليد بن هشام بن المغيرة قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما "يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندوا جنداً، فدون ديوانًا وجند جنداً، فأخذ بقوله". (٣) فلم يقل عمر إن ذلك بدعة رومانية أو ضلالة أجنبية،

---

(١) فتح البارى؛ شرح ابن حجر للحديث رقم ٢٠١٠، جـ٤، ص ٢٥٣.
(٢) سيرة ابن هشام؛ جـ٢، ص ٤٨٣.
(٣) تاريخ الطبرى؛ جـ٤، ص ٢٠٩.

بل وجد فيها بدعة حسنة، فاقتبسها دون تردد. فسواء جاءت البدعة الحسنة من مسلم، أو من غير مسلم، فإن الأخذ بها واجب أو مندوب... والأصل القرآنى لهذا الحكم هو آية الإعداد السابقة (الأنفال: ٦٠) وكذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ٩٩) والعرف هو كل حق وعدل وصواب تعارف عليه البشر، وهو يشمل البدهيات والثوابت والمطلقات التى عرفتها أمم الأرض، فى مجالات التشريع والأخلاق والعلوم، كما يشمل الحكمة التى هى ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، كما قال رسولنا الكريم ﷺ.

أما النظريات الفلسفية فهى وجهات نظر تفتقر إلى الوثاقة النسبية التى تتسم بها الحقائق العلمية. وبعض النظريات يعد بدعة سيئة لأنها تتعارض مع عقائد الإسلام، مثل نظرية التطور عند دارون والتفسير المادى للخلق. وعندئذ يثور العلمانيون من أتباع نظرية التطور، ويقولون إن الإسلام - والأديان السماوية كلها - ضد كل تجريب أو ضد كل إبداع.

فالإبداع فى الإسلام ليس كما صوره الدكتور عصفور ضد الانفتاح على الآخَر، أو ضد التنوع البشرى الخلاق، بدليل القبول السمح لكل ما لدى الغير من العرف، فى عهد النبوة، وفى عهد الراشدين، وعلى امتداد التاريخ الإسلامى، وحتى هذه الساعة. وقد اقتبس المسلمون عن الفرس والروم والإغريق، وهم يقتبسون اليوم عن الشرق والغرب دون حرج. لكنه اقتباس نقدى يميز بين ما يتعارض مع الإسلام وما لا يتعارض معه. وكذلك الاتباع؛ هو اتباع نقدى، يميز بين الوحى الإلهى- أى الكتاب والسنة - وبين اجتهادات البشر التى تقبل المراجعة والأخذ والرد. هذه الحقائق الوطيدة غابت عن ذهن الدكتور عصفور فكانت آراؤه بعيدة عن الصواب.

ثقافة الاتباع:

ويزعم الدكتور عصفور أن الاتباع امتد ليشمل الفكر والثقافة والأدب. فهو يرى أن الاتباع فى المجال الدينى: "يؤصل نزوعًا يغلب على كل المجالات السياسية والاجتماعية والتعليمية والفكرية والإبداعية والإعلامية فيما أسميه ثقافة الاتباع". وهذا هو التعميم الذى يقول به دون أن يقدم دليلاً على وجوده أو يسوق مثالاً

يجسده. ويكفى أن نتذكر أن النصوص الدينية لا تشمل كل شيء، ولذلك وجدنا أعمالاً كثيرة وأنظمة أكثر لا تحكمها نصوص. وقد بحث العلماء فى حكم هذه الأعمال تحت اسم "ما لا نص فيه" أو العفو، وأخضعوه للمصالح المتغيرة.

والمجالات السياسية والاجتماعية والتعليمية والفكرية والإبداعية والإعلامية هى أوسع المجالات للتطوير والتغيير. وإذا عارض بعض الشعراء التجديد فى الشعر فذلك ليس بسند من الدين بل من قواعد الفن نفسه. وإذا اعترض البعض على النظم السياسية الحديثة فذلك بسبب بعض الجوانب التى تصادم الإسلام. وأين هى ثقافة الاتباع فى التعليم؟ ألم يقتبس الأزهر نفسه تقسيم التعليم من الابتدائى إلى الدراسات العليا دون نكير؟ ومن ذا الذى طالب المبدعين بالتزام القواعد القديمة لفنونهم؟ **إن الاعتراض الحاصل هو ضد استخدام الآداب والفنون لنشر الفحشاء والإلحاد بين المؤمنين. وأما الفنون نفسها فهى موضع تقدير من جانب المسلمين.** ومن المضحك أن الدكتور عصفور رافض لفكرة المسرح الإسلامى. ربما لأنها تنفى زعمه بأن الثقافة الإسلامية كلها ثقافة اتباع! بل إن المسلمين يطالبون بالتجديد فى بعض أمور الدين المتغيرة، ويعظمون العلماء الذين يعتبرونهم مجددين فى عصورهم، من أمثال الإمام الغزالى وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمودودى رحمهم الله تعالى.

فكيف يجوز زعم الزاعم بأن الثقافة الإسلامية ثقافة اتباع بالمعنى الشامل المطلق الذى أراده الدكتور عصفور؟

وليس صحيحًا ما يقوله من: "إنه لا جديد تحت الشمس. وما يفعله اللاحقون تكرار بأكثر من معنى لما سبق أن فعله السابقون". هذه مبالغة بكل ما فى الكلمة من معنى. حقًّا هناك ثوابت مطلقة خالدة فى الإسلام، وفى غيره من الأديان، وفى الثقافات الإنسانية كلها. ففكرة العدل مثلاً بوصفها جوهر التشريع، وأساس العلاقات الفردية والطبقية والدولية، هى مبدأ مطلق ثابت، يعلو على الزمان والمكان. ومبدأ احترام العقود والعهود قيمة مطلقة لا ينالها تجديد أو تطوير. وقد ثار العالم كله ضد الإدارة الأمريكية حين أخذت تتنصل من معاهدة كيوتو لصيانة المناخ. وفى المجال الإسلامى لم يكن فى عهد النبوة علم اسمه "علم أصول الفقه"، الذى أصبح من أعظم العلوم الإسلامية، ولم يكن هناك علم اسمه علم التفسير، وصار الآن علماً هائلاً

متجدداً. وأين تفسير الطبرى أو القرطبى من تفسير المنار أو فى ظلال القرآن مثلاً؟ وفى مجال الفقه أُضيفت مباحث جديدة فى المسائل التى طرحت فى العصر الحديث بعد الاحتكاك الكثيف بالشرق والغرب. ولن تكون مسألة الاستشهاديين الذين يفجرون أنفسهم ضد العدو الصهيونى آخر تلك المسائل. وهذا كله جديد وحديث.

وفى الفكر الفلسفى ثوابت لا تتجدد ولا تتغير كالقيم الأخلاقية. والمذهب السائد الآن هو المذهب المطلق absolutism الذى تمسك به عدد من كبار الفلاسفة الأوروبيين، منهم كانط وسيدجويك، وبتلر، ومور، وشيلر، وهارتمن، وغيرهم. وهذا لا يسوغ لأحد أن يزعم أن الثقافة العربية ثقافة اتباع! إنه إغفال الثوابت المطلقة الذى يقف وراء ذلك الزعم الباطل. والفلاسفة المعاصرون أنفسهم يأخذون الكثير عن القدماء.

ويخطئ الدكتور عصفور حين يخلط بين النقل والاقتباس. فالنقل كمصطلح إسلامى يعنى الأخذ عن الكتاب والسُّنّة فى ميدان الدين، لكن الاقتباس يعنى الأخذ عن أى مصدر. والنقل عن الكتاب والسُّنّة ليس نقلاً أعمى ولكنه علم له قواعده وأصوله ومجالاته، وحدوده.

ويخطئ حين يخلط بين الماضوية والإطلاق؛ فالماضوية صفة للمتغيرات، لكن المطلقات لا توصف بالماضوية، لأنها ليست زمانية. من ذلك - مثلاً - البدهيات المنطقية والقيم الأخلاقية. وقد ذكرنا العدل والوفاء بالعهود فيما سبق فلا داعى للإعادة. لكن الدكتور عصفور يتجاهل الثوابت متأثراً بنيتشه ونظرية التطور والنظريات المادية والتجريبية الحديثة.

الوجه الأدبى للتقليد

ويزعم الدكتور عصفور أن التقليد فى المجال الدينى أشاع التقليد فى المجال الأدبى الثقافى عامة. وهو يصف العقلانيين الرافضين للتقليد بأنهم "الذين يؤمنون بأولوية العقل فى المعرفة والحكم والتفسير، ويوجبون النظر فى المقبولات والمشهورات والتقليديات لمعرفة ما يلزم منها وما لا يلزم. وهم مبتدعون يريدون اكتشاف عوالم تظل فى حاجة إلى كشف، كما أنهم طوائف اجتماعية تسعى إلى المزيد من التحرر، ومن ثم اكتمال الحق فى الوجود". وفى التقليديين نقيض هذه الصفات!!

وبعبارة أخرى أوضح، هو يرى أن العقل يجب أن يسود على الوحي، بحيث إذا اختلفا وجب الأخذ بكلمة العقل ونبذ كلمة الوحى. والعقلانيون يجب أن يبحثوا فى العقائد الدينية والشرائع الإسلامية وغيرها، مستندين إلى العقل وهم الذين يقررون ما يلزمنا منها وما لايلزمنا. والمعيار طبعًا هو مصالح الناس فى هذه الحياة (هذا رأى الدكتور زكي نجيب محمود). ورواد العقلانية عند الدكتور عصفور هم شبلى شميل وإسماعيل أدهم ولويس عوض وأدونيس وغيرهم. وهؤلاء نظروا فى الدين وأعلنوا رفضهم له والشك فيه، وهذه هى مكتشفاتهم! وهى فى الحقيقة انعكاسات للفلسفات المادية السائدة فى أوروبا وأمريكا.

وهم مبتدعون بالمعنى السيئ للبدعة بتبنى مذاهب مادية وتقاليد أجنبية مضادة للأخلاقيات الإسلامية. والإسلاميون يجعلون كلمة الله هى العليا فى أى خلاف بين الوحي والعقل، ولا يرتابون فى عقائد الدين، ويسعون لبلوغ البدعة الحسنة الواجبة، ومحاربة البدعة السيئة بكل مجال، وقد قاتلوا المستعمر الأجنبى والظالم المحلى، وكانوا ضحية العسف الاستعمارى الأجنبى، والحيف الاستبدادى الوطنى. وعلى الرغم من ذلك يشكو الدكتور عصفور من القمع، وهو الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة فى مصر، وكتبه تطبعها دور النشر الحكومية وتوزعها، والمجالات كلها مفتوحة أمامه ليحاضر فى الندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية فى حين يحرم الإسلاميون من مجرد إصدار مجلة أو جريدة، أو السماح لهم بالرد على العلمانيين.

وهو يفسر معارضة الشعراء العرب للشعر المنثور ومذاهب النقد الأجنبية بردها إلى الإسلام! والحق أن الشعراء العرب المعارضين للشعر المنثور إنما يفعلون ذلك استنادًا إلى طبيعة فن الشعر ذاته. وفيهم شعراء علمانيون ماديون وملاحدة كثيرون، كما أن فيهم مسلمين متمسكين بالإسلام. والإسلام لا يمنع الشعر المنثور أو النثر المشعور، كما لا يمنع اقتباس فنون الرواية والمسرح، لكنه يمنع استخدام الآداب والفنون للترويج للفحشاء ونشر الإلحاد. قال تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ (الشعراء: ٢٢٤– ٢٢٧)

وذكر بعض المفسرين أن كبار الشعراء المسلمين، وهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة، هرعوا إلى رسول الله ﷺ يتساءلون: يا نبى الله، أنزل الله تعالى هذه الآيات، وهو تعالى يعلم أنّا شعراء! فقال ﷺ: "اقرأوا ما بعدها: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ أنتم! ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم! وقال لهم أيضًا: "انتصروا ولا تقولوا إلا حقًّا، ولا تذكروا الآباء والأمهات" يعنى بسوء. وقال كذلك "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه. والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل".

ولما سمع ﷺ بيت كعب بن مالك الذى يقول فيه:

جاءت سُخينة كى تغالب ربها ... وليُغلَبن مغالب الغلاب

قال: "لقد مدحك الله يا كعب فى قولك هذا" (١)... فليس فى الإسلام مانع من مخالفة التقاليد الشعرية، طالما كان المضمون الأدبى أخلاقيًا ساميًا.

النقل:

ويعرِّف الدكتور عصفور النقلَ، فيقول: "إن النقل هو الأخذ عن السابقين، والتعويل على نصوصهم والاستناد عمومًا إلى النصوص القديمة السابقة فى الوجود والرتبة – بوصفها مبتدى العلم ومنتهاه ومصدر المعرفة وإطارها، منبع الحقيقة وأفقها". وهذا التعريف مفعم بالأخطاء:

فالنقل فى المصطلح الإسلامى يوضع فى مقابل العقل، أو الخبرات البشرية عامة. ففى الإسلام مصادر المعرفة البشرية هى: الوحى، والحواس، والعقل، والحدس. والنقل هو الأخذ عن الوحى، أى الكتاب والسُّنّة فقط.

وأما الأخذ عن السابقين فهو الاقتباس من أى مصدر إسلامى أو غير إسلامي. وفى معظم الأحوال تتسق مصادر المعرفة، لكنها قد تتعارض. وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الضخم فى "درء تعارض العقل والنقل" والمسلمون يجعلون كلمة الله هى العليا عندما يقع تعارض بين العقل والنقل، لأن النقل اسم آخر للوحي، أو نصوص الكتاب والسُّنّة المقدسة عند أهل القبلة.

---

(١) تفسير القرطبى، آخر سورة الشعراء – وسُخينة هى قريش.

أما الخبرات البشرية فليس لها قداسة، لأن البشر يصيبون ويخطئون، ولذلك اعتبر الإمام الغزالى أن أقوال الصحابة مصادر موهومة للعلوم الشرعية، لأنه يجوز عليهم الغلط والسهو، ولم تثبت عصمتهم، وقد خالف بعضهم بعضاً وهم قد أجازوا مخالفتهم.(١)

ونحن الآن نأخذ ببعض اجتهاداتهم التي نجدها متفقة مع النصوص وندع غيرها مما لا يتفق مع النصوص. وكذلك نأخذ من اجتهادات الأئمة وندع. وهذه الحقائق تثبت يقيناً أن تعريف الدكتور عصفور للنقل خاطئ مضلل.

وإن من المدهش أن الرجل يجمع النصوص المقدسة والنصوص البشرية معًا ثم يصدر عليهما حكمًا واحدًا! أى أنه يساوى بين آية قرآنية ورأى فقيه أو أديب أو فيلسوف! كأن المسلمين ينظرون إلى فلسفة الفارابى أو ابن سينا مثلاً كما ينظرون إلى القرآن الكريم، وينقلون عن الفلاسفة العرب الذين يسميهم هو أهل العقل الذين جعلوا الكلمة العليا للعقل فوق الوحي، فى كل مجالات المعرفة. والحق أن الفلاسفة العرب القدامى مقلدون لأفلاطون وأرسطو، وليس لهم فلسفة أصيلة. ولذلك لفظهم المسلمون لفظ النواة. ولم يعتبر علم الكلام علماً إسلاميًا عند كثير من علماء المسلمين. أولئك هم "فراخ اليونان" كما قال ابن تيمية بحق!

ويزعم الدكتور عصفور أن أهل العقل ينتصرون فى فترات الاستقلال والازدهار وينتصر أهل النقل فى فترات الهزائم والانكسارات. لكنه عجز عن تقديم أى دليل على صحة زعمه. ونحن نقول إن عصر النبوة والراشدين كان عصر النقل وسيادة الوحي حيث لم يكن هناك فلاسفة ولا متكلمون، وكان فى الوقت نفسه عصر الانتصارات الكبرى، وعصر استقلال الأمة عن الفرس والروم، بل عصر فتح بلاد الفرس والروم.

وعلى امتداد التاريخ الإسلامى كان أهل النقل هم أصحاب الكلمة العليا فى حياة المسلمين مع وجود بعض المتفلسفين المقلدين لأفلاطون وأرسطو، وكانت الهزائم

---

(١) المستصفى ؛ مكتبة الجندى ؛ ص ٢٤٣ .

قرينة استبداد الأمراء والتناحر بين الحكام الطغاة المتمردين على شريعة الله والعاصين لأمره بالشورى والاعتصام بحبل الله. فالرابطة التى توهمها الدكتور عصفور لا وجود لها فى أى عصر، وإنما العكس هو الصحيح، أعنى أن إخضاع الوحي للعقل (ومعه أهواء البشر وشهواتهم) لابد أن يفضى إلى ضعف الأمة المسلمة وتمزقها، وأن وحدتها - وهى لا تتحد إلا على الإسلام - هى سر قوتها وازدهارها واستقلالها.

ويذهب الدكتور عصفور فى تحيزه لأهل العقل من الفلاسفة والمتكلمين إلى حد جعل العقيدة الدينية قضية عقل. والحق أن الإسلام يخاطب غير المؤمنين بمنطق العقل، لكنه يخاطب الذين آمنوا به بحقائق الوحي وأوامره.

والعقل يؤيد الإيمان بالله الخالق، الواحد الأحد، ويرفض الإلحاد الذى يزعم أن العالم قد خلق نفسه بنفسه! فليس للمسلم الذى آمن بالله أن ينظر إلى العقيدة كقضية، بحجة أنه من أهل العقل، فذلك يعنى أنه قد ارتد إلى المرحلة السابقة على الإيمان. ثم إن العقل البشرى يقود إلى الإيمان، لكنه يعجز عن بلوغ تصور سديد لصفات الله تعالى، ولا يستطيع أن يدرك أوامره فيحتاج إلى الوحي. وكيف يعرف العقل أن صلاة المغرب ثلاث ركعات والعشاء أربع، وأن الحج فرض مرة فى العمر، وغير ذلك من الواجبات؟!

وكيف يدرك العقل غيبيات الدين، وهو سجين الحواس كما قال كانط فيلسوف ألمانيا الأكبر؟ الدكتور عصفور يرى مع بعض المتكلمين أن الإنسان مُكلّف بحكم عقله، لا بحكم الوحي وأن الله سيحاسبه على أعماله سواء عرف الوحي أو لم يعرفه، لأن العقل حجة الله على خلقه. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥) لكن الدكتور عصفور يُغفل هذه الآية المحكمة ويتابع شواذ المعتزلة والمتكلمين. أما نحن فنرى بعقولنا استحالة المحاسبة على أساس العقل فى أمور هى فوق مستوى إدراك العقول والألباب. وتلك من رحمة الله تعالى بخلقه ونحن نشكره - عز وجل - على ذلك ونسأله أن يسبغ رحمته الواسعة على كل خلقه.

الإجمـاع :

إن الإجماع بحسب علم أصول الفقه الإسلامى هو "الإجماع فى جملة الفرائض التى لا يسع أحد جهلها" [١] ويستند الإجماع إلى نصوص متواترة، وأمور معلومة ضرورة بقرائن الأحوال.[٢] أو كما يقول الغزالى إن الصحابة "ما كانوا يجمعون إلا على أمر يكون قد ورد فيه نص"[٣] و الإجماع هو إجماع كل مجتهد مقبول الفتوى، كما يقول الغزالى أيضاً. فليس الإجماع بلا أساس من الوحي.

فماذا ينكر الدكتور عصفور من هذا الإجماع؟

يقول الرجل إن الإجماع "صفة ملازمة للتقليد والنقل والتسليم فى ثقافة الاتباع". وهذا القول باطل، لأن الإجماع ليس تقليداً، بل اعتراف جماعى من جانب علماء المسلمين بصحة عقيدة أو شريعة إسلامية جاء بها القرآن الكريم أو السُّنّة الصحيحة. والتزام الإجماع النقل -أو الوحي- ليس عيباً فيه، بل هو المسوغ الشرعى لقبول المسلمين له. والتسليم الذى يرفضه الدكتور عصفور هو جوهر الإسلام. وعلى هذا يكون الإجماع مصدراً للمعرفة الوثيقة بالعقائد والشرائع الإسلامية. وإذا تأكد وجود إجماع صحيح فى أمر من أمور الدين، وجب احترامه والعمل به، لأنه يعبر عن حقيقة إسلامية. ولا يعيب المسلمين الوقوف عنده، بل يعيبهم مخالفته، لأنهم عندئذ يخالفون شريعة إسلامية مستندة إلى نص، فإذا جاء أحد المعتزلة، كإبراهيم النظام أو غيره وقال إن الإجماع ليس حجة، كان قوله دليلاً على سوء فهمه للإجماع.

الدكتور عصفور سعيد برفض إبراهيم النظام - المعتزلى - للإجماع، لأنه يريد أن تكون العقائد والشرائع الإسلامية نسبية متغيرة، ويؤسفه أن يوجد إجماع أصولى سديد، مستند إلى نصوص صحيحة، يؤكد العقائد والشرائع الإسلامية، ويحميها من تقلب الأهواء والشهوات البشرية؛ إنها عقائد وشرائع مطلقة، خالدة ثابتة، يتحتم احترامها والعمل بحسبها فى كل العصور وحتى يوم الدين. وهذا الإطلاق والثبات هو ما يغضب اتباع نظرية التطور وفلسفة "نيتشه" والسوفسطائيين القدماء.

---

(١) أبو زهرة؛ أصول الفقه رقم ١٨٧ .
(٢) الغزالى ؛ المستصفى ؛ ص ٢٠٨ .
(٣) نفسه؛ الفقرة رقم ٢٠٠ .

إن أقوال الدكتور عصفور عن ثقافة الاتباع بقصد النيل من الإجماع والتنفير منه، هى أقوال زائفة فى حكم الشرع ومنطق العقل، ولن أعيد القول فى سقوط النسبية التى يريد إحلالها محل ثوابت الإسلام، مكتفياً بما سبق قوله.

الإنسان الاتباعى:

ويستخدم الدكتور عصفور تعبير ثقافة الاتباع بمعنى الثقافة الإسلامية، لكى يستبيح لنفسه الطعن فيها بما ليس فيها! فالإنسان الاتباعى الذى يدينه الدكتور عصفور ويزرى به هو الإنسان المسلم الملتزم بالكتاب والسُّنَة المطهرة. ومن مطاعن عصفور قوله إن ثقافة الاتباع "ظلت تلوذ بمفهوم يهبط بالإنسان إلى الدرك الأدنى، ويحصره فى طبائع ناقصة تدعوه إلى الفتور والكسل". ذلك أنه افترض أن الإسلام يقول بالجبر المطلق وينفى حرية الإرادة. ومعلوم أن قضية الجبر قضية إنسانية عالمية، عُولجت فى الفلسفة وفى الدين وفى علوم الإنسان. ولم يتفق البشر على مذهب واحد، بل اختلفوا وتباينوا إلى أبعد الحدود. وكذلك اختلف المسلمون فى القضية فقال بعضهم بالجبرية وقال بعضهم بالحرية وقال بعضهم بمركبات ومفاهيم تتوسط بين الطرفين. وإذن فليس لعصفور أو غيره أن يلصق الجبرية بالإسلام وحده، ثم يشن عليه حملة شعواء؛ مدعيًا أنه يهبط بالإنسان إلى الدرك الأدنى! ذلك كله باطل، ولا أساس له، بل العكس هو الصحيح.

ويرفض الدكتور عصفور قول النبى ﷺ: "كل ابن آدم خطاء" ... "لأن هذه النظرة التى ترى أن ابن آدم خطاء بطبعه لابد أن تركن إلى الوصاية الدائمة عليه حيث تسلبه الحق فى أن يخطو فى علاقته مع غيره أو علاقته بالله خطوة واحدة مستقلة نابعة من ذاته أو من إدراكه الخاص". وهذا هو أسوأ تفسير للحديث الشريف! فالحديث الشريف يقرر بدهية لا مراء فيها وحقيقة إنسانية عامة، نشاهدها كل يوم بل كل ساعة، ويستحيل إنكارها. والحديث الشريف يذكرنا بهذه الحقيقة لكى يخفف عنا وطأة الإحساس بالذنب، ثم يدعونا إلى التوبة فيقول "وخير الخطَّائين التوابون" ... وهكذا يفتح للمؤمن باب الأمل والرحمة على مصراعيه. وكون ابن آدم خطاء معناه أنه حر الإرادة،، يطيع الله تعالى أو يعصيه، ويفعل الخير والشر، ولذلك هو مسؤول

أمام إخوانه من البشر وأمام الله تعالى . . . لكن التحيز هو الذى دفع الدكتور عصفور إلى ذلك التفسير الخاطئ المناقض للبدهيات والحقائق فى حياة البشر الواقعية .

والعلماء الموضوعيون الباحثون عن الحقائق لا يخطفون حديثاً شريفاً ثم يسيئون تفسيره، ثم يبنون عليه تصورهم للإنسان فى الإسلام، ثم ينهالون على الإسلام تجريحًا وتشويهًا ورفضًا! كلا، إنهم يدرسون الآيات القرآنية العديدة التى ذكرت الإنسان، والأحاديث الكثيرة التى وصفته ثم يشيدون على كل ذلك نظرية إسلامية فى الإنسان . أما أسلوب الخطف فهو "بروبوجندا" لا وزن لها ولا قيمة فى عالم العلم المنهجى الموضوعى .

وبهذا الأسلوب غير العلمى يشير الدكتور عصفور إلى آية قرآنية، بل يفسرها أسوأ تفسير، ويذهب فى ذلك إلى تناقض مشين وتصادم قبيح مع بدهيات اللغة وحقائق العلم . يقول - عز وجل - : ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ (القيامة : ١-٢) والنفس اللوامة هى نفس المؤمن الذى يلوم نفسه ويعاتبها حين تقع فى الخطأ . هى ضمير الإنسان والصوت الباطنى الذى يحثه على العمل الصالح ويؤنبه إذا أخطأ . لكن الدكتور عصفور يرى أن النفس اللوامة "تكرر ضلالتها من عصر إلى عصر وسقطاتها من جيل إلى جيل . . !" فمن أين جاء الرجل بهذه الشناعات التى تناقض ألفاظ الآية الكريمة؟! ألم يعرف معنى اللوم؟ أم يشعر يومًا بوخز الضمير؟ ولماذا لم يستند إلى أى مصدر علمى إسلامى فى تفسيره؟ بل لماذا لم يراجع أى معجم للغة؟ وما البديل الذى يقدمه لنا الدكتور الكبير ليحل محل تصورات الإسلام للإنسان؟ هل هو التصور المسيحى الذى يقول بالخطيئة الأولى؟ هل هو تصور فرويد السيكولوجى؟ هل الإنسان عنده ملاك لا يخطئ أبداً؟!

إن الرجل يرفض فقط، دون أن يشير ولو بكلمة واحدة إلى مذهبه فى الإنسان . وهو حريص على تشويه معنى النفس اللوامة، دون أن يلتزم بأى منهج علمى، أو حتى بألفاظ اللغة العربية .

● وبعد، فماذا تُسمى تلك الأقاويل؟ **إنها ليست علمًا بأى معنى لكلمة العلم، وليست نقداً فكريًا أو أدبيًا من أى نوع . إنها كلام كثير مرصوص يفتقر إلى المنطق، وهى محاولة فاشلة للزراية بالثقافة الإسلامية والتصور الإسلامى للإنسان .**